(٩)

إذن.. فهو القط بسبس*

حكاية مشهورة يعرفها كل دارس للأدب العربى وكل مولع بأدب الجاحظ أبى عثمان عمرو بن بحر وكتاباته الحافلة بالمعارف والمعلومات الفياضة بالجمال وخفة الظل مع الفهم التام للمجتمع الإسلامى وأدبه وتاريخه وفكره حتى عصر الجاحظ نفسه، فقد ولد الجاحظ سنة ١٥٩هـ وتوفى سنة ٢٥٥ للهجرة (تقابل ٧٧٥م و ٨٦٨ للميلاد) أى أنه عاش خلال العصر الذى تم فيه التحول الحاسم لدولة الإسلام من دولة عربية يقودها ويوجه سياستها العرب إلى دولة بلا شخصية ولا وظيفة ولا هدف. دولة يقال إنها عربية. وأصحاب السلطان فيها كل أصناف الناس إلا العرب، ودولة يقال إنها دولة الإسلام. كل ما يجرى فيها هدم للإسلام وتزييف لأصوله وعقيدته وطبيعته، دولة قامت لتقود البشر إلى معارج الخير والسعادة والرخاء فانحرف بها شياطين الناس إلى دركات الشر والتعاسة والجوع. ومجتمع كل من فيه قلق خائف من الخليفة إلى الفقير الذى يجرى على أهله وعياله.

فى هذا العصر الحافل بنذر الشر وطوالع الردة إلى ما هو أسوأ من الجاهلية. كان الجاحظ بظرفه وعلمه ومهارته فى الحديث عن ألوان التعاسة التى كان الناس يحيونها. كانت كتابات هذا الرجل – الذى لم تهبه الحياة لمحة من لمحات وسامة الخلق وعوضته بكل لمحة من لمحات الظرف وخفة الظل هى تسلية الناس أجمعين، كان تلفاز العصر، وكتبه كانت مسلسلات أيامنا، فهى حديث الناس وتسلية المجالس، ولكل عصر تسليته من مستواه: لأجدانا كتابات الجاحظ وهى ديوان من العلم والأدب حافل. ولعصرنا مسلسلاته، وهى أساطير

* نشرت هذه المقالة فى ٣١ أكتوبر ١٩٨٢م.

ملونة، ونحن نطرب لها، لأننا نرى فيها الشيء الأساسى الذى نفتقده فى الحياة من حولنا، فإن مسلسلات التلفاز كلها ألوان وليس فيها إلا ألوان. أما حياتنا فلا لون لها ولا طعم، ولكن لها مع الأسف رائحة لا تستريح إليها القلوب.

حكاية الجاحظ تقول: إن رجلاً اشترى رطلين من اللحم وتركهما لامرأته لتعد الطعام، ومضى إلى عمله. ثم عاد آخر اليوم يطلب الطعام فلم يجد الطعام، وقالت له امرأته: إن اللحم كله أكله السنور، وهو اسم من أسماء القط فى لغة العرب.

ونظر الرجل إلى السنور فإذا به قمىء هزيل تنطق هيئته بالمجاعة فأخذه ووضعه فى كفة الميزان فإذا هو رطلان، فقال لامرأته:

– هذا هو اللحم فأين السنور؟.

ذكرت هذه القصة الطريفة وأنا أشهد واحدًا من الاستطلاعات التلفازية حيث تقوم سيدة شابة وسيمة ذات ذكاء بعرض إحدى مواجعنا والبحث عن المسئول، فإذا عرفنا المسئول تبين لنا وجه الحل، وكانت المشكلة المعروضة هى مشكلة اللحم، ومن المسئول عن غلاء سعره، وفوضى تجارته، وقامت السيدة باستجواب كل المسئولين عن حكاية اللحم. من المزارع الذى يربى إلى التاجر الذى يشترى إلى المسئول فى الوزارات عن تزويدنا باللحم ما بين محلى ومستورد، والقائم بمراقبة العملية كلها إلى المسئول عن المذبح. إلى المسئولين عن شوادر بيع اللحم. ثم أصحابنا (المعلمين) الذين لا يتاجرون فى الجزارات بلحم البقر والجاموس والغنم. إنما بلحومنا نحن، ما مررت بدكان من دكاكينهم ورأيت الذبائح معلقة فى الخطاطيف إلا قلت: والله ما هذه الذبائح إلا نحن! حتى إنى لأرى نفسى معلقًا فى الدكان من عرقوبى ليبيعنى المعلم دبشة والمعلم حكشة رطلاً رطلاً وريشة ريشة.. وكل ما أرجوهم فيه فى هذه الحالة هو أن يبيعوا لحمى بالتسعيرة.

الذى تبينته أثناء الاستطلاع أن الكل كذابون. وأكذب الجميع هو الفلاح الذى يربى المواشى، وهو رجل كالح الوجه كئيب المنظر، وأكاب ما فيه عيناه، فإنك تقرأ فيهما الكذب المركب. فهو يكذب من البداية إلى النهاية. يكذب فى كل كلمة يقولها، وكلما أقسم بالله كان ذلك دليلاً أقوى على كذبه، والسيدة المستطلعة حيرى من أمرها أمامه. فهى تراه يكذب ولا تستطيع أن تصفعه على وجهه لأنه كذاب. وهو يتكلم ويستشهد بأخيه أو ابنه أو العامل معه وكلهم كذابون. وأنت نسأل نفسك: هل تقاليد الريف التى توارثتها أجيال هذا الرجل انتهت إلى حقيقة واحدة هى الكذب؟

وتيأس المسكينة منه فتتجه إلى المسئولين فى الحكومة عن شئون اللحم ما بين محلى ومستورد. فتجد كلامهم عجيبًا متناقضًا متضاربًا. فهم يقسمون بالشياطين وبشيخهم إبليس أنهم ملائكة أبرار. وأنهم لا ينامون لحظة من ليل أو نهار. يراقبون ثعالب التجار. وتنتقل إلى التجار فتصل إلى ذروة الكذب. فالمعلم دبشة لا يراعى إلا الله فى كل درهم من اللحم يبيعه. لأنه رجل مخلص يريد أن يدخل الجنة دون مشاكل أو إجراءات. أما العمارة التى اشتراها فى شارع الميرغنى فهذه ورثها من تركة أبيه الحلال، فأبوه طيب الله ثراه كان يورد اللحم الحلال لسلاطين مصر من أيام قلاوون الجبار إلى طومان باى الشهير بالمنشار، أما العمارة التى يملكها على شاطئ البحر فى الإسكندرية فهى ثلاثة بالله العظيم ومالك علىّ يا شيخ حلفان. فهى ربح حلال من بيع اللحم بالتسعيرة والعدل والقسطاس، وكذلك السيارة المرسيدس الغلبانة التى يركبها، والفيلات الجميلة التى تسكنها زوجاته الأربع وأولاده الخمسة عشر. وكلهم ملائكة أطهار، يأكلون حلالا ويشربون بلالاً، وهم جميعا أبرياء من كل سوء. لأنهم سيدخلون الجنة معه بنفس التأشيرة على نفس الباسبور..

وتلتفت المذيعة المحيرة إلينا وتقول وفى عينها شقاء الدنيا ويأس العالمين: إذن فأين الحل ياناس ومن المسئول؟

والجواب المريح الشافى هو أن المسئول عن مشكلة اللحم من بدايتها إلى نهايتها هو نفس المسئول عن رطلى اللحم اللذين اشتراهما الرجل فأكلهما السنور الهزيل الضئيل.

المسئول هو القط بسبس ولا مجرم سواه.

هو الذى يفترس مئات الألوف من أطنان اللحم التى نربيها أو نشتريها، هو المسئول عن ملايين أطنان العلف التى نوزعها على المربين من المزارعين.

وهو وحدة المسئول والبقية أبرار أطهار.

وقد تعرضت لهذه المحنة وأنا أحقق فى مأساة شبابنا. وشبابنا يا مولاى له ألف أب، ومع ذلك فهو أتعس الأيتام، وهو لكثرة المشرفين على شئونه والمعنيين بأموره أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام. ومن هم أولئك اللئام؟ تعال يا أخى نسأل ونحقق. بدأت أحقق الموضوع عند الكبار فرأيت العجب بدأت من حقيقة واضحة لا شك فيها. فيما حسبت، وهى أن شبابنا ضائع فى البيت وضائع فى الطريق وضائع فى المدرسة وضائع فى الجامعة وضائع بلا أمل بعد الجامعة.. لأن المرتب الذى سيتقاضاه بعد الغلب والتعب لا يرضى به أتعس متسول على باب سيدنا الحسين.

وتعجب المسئول الكبير الذى بدأت التحقيق عنده من كلامى وقال. تقول هذا وأنت تعلم أننا اعتمدنا الملايين بعد الملايين لرعاية الشباب، لقد أنشأنا مركزًا لرعاية الشباب فى كل محافظة وكل مدينة وقوية وحى، وفى كل مركز عشرة من الاختصاصيين يعيشون رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار فى خدمة الشباب المحتار، وماذا يعملون رحمك الله

لخدمة الشباب إننى أرى الشباب غلبانا تعيسًا يلعب الكرة بجورب محشو بالقطن لأنه لا يجد كرة محترمة – أو نصف محترمة وهو يلعب الكرة فى الحوارى والأزقة لأنه لا يجد مكانا يلعب فيه غير الحوارى والأزقة، ومراكز الشباب التى تتحدث عنها عاجزة عن أن تدبر للشباب فى كل حى مائة متر مربع يجعلونها حديقة له يستروح النسيم فيها ويتلاقى كما يتلاقى غيره من الشبان. وفى حى كامل مثل حى الروضة والمنيل لم تقيموا له مكتبة واحدة يتردد عليها ليقرأ ويتعلم، ولو أنكم أنفقتم المال الذى تنفقونه على (رهبان الليل وفرسان النهار).. الذين ذكرتهم على الشباب نفسه لكان أجدى. فمركز الشباب الذى يحتله الموظفون يكون أنفع لو تحول إلى ناد ومكتبة جميلة التأثيث حسنة الإنارة يزورها الشاب ليجتمع بأترابه تحت إشراف رجل واحد طيب صادق يحمل فى صدره قلبا عامرا بالخير. وقلب واحد عامر بالخير أبرك علينا ألف مرة من لقب الدكتوراه الذى يحمله كل عبقرى من عباقرة مراكز الشباب، لقد زرت بلاد الدنيا جميعا وليس فيها بلد واحد إلا فيه مراكز للشباب يستمتع فيها الشباب وحده، ولا يحتلها ثقلاء الظل من الموظفين حتى شباب قرغيزيا فى بلاد المسلمين الذين نقول: إنهم يرسفون فى قيود الذل والاستعمار فى تركستان الروسية. حتى هناك أنشأ الناس لهم مراكز شباب هى بيوت أنيقة ذات حدائق فيها مكتبات وقاعات لممارسة الرياضيات وملاعب للكرة بشتى أصنافها، وأنا لا يهمنى أن تكون الكتب التى يحويها مركز الشباب من تأليف لينين أو تشكوف. لأن الذى أعرفه وهو بديهى أن الشباب فى حاجة إلى شىء واحد: أن يستمتع بشبابه.. فينفق وقت فراغه فيما يحب من لعب أو رياضة أو حديث أو مطالعة. أما أن يدخل الشاب مركز الشباب فيجده غرفًا يحتلها موظفون: هذا مدير وهذا نائب مدير وهذا وكيل وذاك سكرتير. والذين ليسوا بموظفين فى المركز فهم

مخبرون. فهذا شيء لا ينفع الشباب والمساحة الوحيدة المباحة للشباب هناك هى المدخل الذى يجلس فيه فراش، وحتى الفراش لا يخدم الشباب إنه يعمل القهوة والشاى للسادة الإخصائيين، وكل هم السادة رجال المركز هو التخلص من الشباب. فالمكان الوحيد للشباب عندهم هو الورق، والعمل الوحيد الذى يشغلهم هو كتابة خطابات من المركز القروى للمركز الإقليمى، ومن الإقليمى للمركزى ذهابًا مرة وإيابًا مرة وتقارير ترفع إلى السيد الوزير أو السيد الوزير الأمين ومؤتمرات يختارون لها محاسيب الشباب باسم قيادات الشباب وساقية دايرة ولا ماء وأرض عطشانة ولا رى!

فإذا دخل شاب سأله الفراش:

– عاوز حاجة يا حضرة.

– السيد المدير.

– مش موجود.

– السيد الوكيل.

– فى اجتماع.

– فالسيد السكرتير.

– سافر إلى أمريكا فى بعثة تدريب.

وينصرف الشاب كاسف البال يبحث عن داهية يذهب إليها.

ويقول مسئول عن شئون الشباب وهو يطلعنى على دفتر مطبوع.

– انظر إلى هذه الدراسة الميدانية التى قمنا بها عن شباب حى باب الشعرية! وانظر فى الدفتر فإذا به جداول من أوله إلى آخره.

– وما هى هذه الجداول يا مولانا؟

– كل جدول من هذه خلاصة استبيان ميدانى: لقد قسمنا الشباب إلى قطاعات أفقية وأخرى رأسية، وأرسلنا خمسين باحثًا وباحثة ليستوفوا البيانات ويملئوا الخانات.

وملئوها فبركات وابتكارات. والفبركات رتبت وحللت بمعرفة حاسب إليكرونى أخرج النسب المئوية التى تصل إلى ١,٠٠٥٪ فى المائة.

– ومن الذين يقومون بهذه التجهيزات؟

– شباب من القيادات فى بعثات تدريب فى مراكز جامعية أمريكية..

وهنا تعود إلى ذاكرتى مأساة بعثة التدريب فى برنامج التنمية الإدارية التى أرسلوها إلى مركز تدريب دولى تنظمه جهات علمية فى الولايات المتحدة. والمجموعة المصرية تكونت من عشرة شبان والدول المشتركة فى الدورة عشر دول أفريقية وآسيوية.

والذى فعلته المجموعة المصرية لا يوصف إلا بأنه مأساة والخبر بتفاصيله نشر فى تقرير طويل فى جريدة الأهرام. ونحن فى هذه المقالات لا نبحث عن أسرار لأننا لسنا فى حاجة إلى بحث وتنقيب، فالمصائب ومظاهر التخلف الإدارى أصبحت تعرض على عربات الكارو فى الشوارع. والمسئولون عما يصيبنا تخلصوا من عقدة الخوف من العقاب و (عيب) يا جدع، فإننا فى مجتمع مواطنين أحرار كلهم رءوسهم مرفوعة فى السماء والحمد لله والرأس الوحيد المائل هو رأس أمنا العزيزة مصر والحكاية باختصار أن هذه المجموعة المصرية التى اختارها السادة المسئولون كانت (عرة) فى وسط المجموعات الأفريقية والآسيوية.

فقد وصل أفرادها (المحروسون) وكل واحد منهم تكلف علينا ٤ آلاف دولار. وصلوا ليكتشفوا أن الدراسة هناك باللغة الإنجليزية، وكانوا فيما نظن ينتظرون أن الدراسة فى جامعة شيكاغو ستكون باللغة العربية. وحتى ولو كانت باللغة العربية فصدقنى أنهم ما كانوا ليفهموها لأننى أنا أدرس فى جامعة القاهرة باللغة العربية ولا يفهمنى الطلاب إلا بشق النفس ولابد أن نخاطبهم بلغة المرحوم إسماعيل ياسين ليفهمونا ووصلت المجموعة فى شهر رمضان فقال أفرادها جميعا: هذا هو شهر الصوم، ولا دروس فى شهر الصوم.

وقالت السيدة الأمريكية المشرفة التى تبينت أن المجموعة المصرية مجموعة قرود لا آدميين: ننتهز هذه الفرصة وننظم لهم برنامج تقوية فى اللغة الإنجليزية، ثم تبينت أنهم فى حاجة إلى أن يتعلموا حروف الهجاء وأن معرفتهم باللغة الإنجليزية لا تخرج عن لفظين: أو كيه (باى باى) والاثنان من قاموس العلامة إسماعيل ياسين. وواحد منهم كان يحفظ أغنية إنجليزية تقول: هابى بيرثادى يا حمادة (وهو اسمه) وهى من قاموس عبد السلام النابلسى. وواحد منهم لزم غرفته فلم يحضر الدروس ولكنه فى شهر رمضان لم يترك سينما يعرض فيها فيلم من أفلام البورنو إلا شرفها بحضوره والبورنو كلمة يونانية معناها – ولا مؤاخذة – القذارة. ومجلات البورنو هى مجلات القذارة وكذلك أفلامها. والقذارة لا تنقض الصيام ولكن دروس التدريب على التنمية الإدارية تنقضه.

وبعد شهر رمضان استمروا لا يحضرون الدروس وعلقوا لهم إعلانًا مخجلاً فى لوحة الإعلانات. كل هذا ومجموعات طلاب البلاد النامية الأخرى يحضرون لأنهم آتون من بلاد نامية تريد أن تنمو. أما نحن فبلد توقف عن النمو؛ لأنه طفل متخلف، وعن قريب سيصدر تصنيف جديد للأمم: أمم متقدمة، وبلاد أقسمت بالله العظيم ثلاثًا ألا تتقدم.

ولماذا لا تحضرون الدروس يا بهوات؟.

لأننا سبق أن حضرنا برنامج تدريب مشابها لهذا فى ألمانيا.. يا نهار أبيض!.

هؤلاء المتخلفون قوميًا وعقليًا وإداريًا سبق أن أرسلتهم الغلبانة مصر على حسابها إلى برنامج تدريب إلى ألمانيا وخابوا خيبة بلا حدود، ومكافأة لهم أرسلناهم إلى دورة ثانية فى الولايات المتحدة؟.

– نعم، ولم لا؟.

– ومن الذى يتولى اختيار أفراد هذه المجموعات؟.

لا تتعب نفسك فى البحث لأن الذى قام بالترشيح والاختيار هو القط بسبس.

وهل يصنع هذه العجاب إلا العكروت بسبس؟.

واليك مقلب آخر من مقالب الملعون بسبس.

كلنا نعرف أن السياحة فى مصر راقدة الآن فى وهدة عميقة طويلة ولا يدرى إلا الله وحده متى وكيف تخرج منها، ولماذا والله تخرج إذا كانت الآثار نفسها فى طريقها إلى الزوال؟.

وكلنا نعرف أن السبب الأكبر فىَ هذه المأساة أن المشرفين على السياحة عندنا لم يكتشفوا بعد أن السياحة تقوم على المعاملة الحسنة للسائح والخدمة الحقيقية بالسعر المناسب له.

فالسائح الذى يخرج من مطار القاهرة ليجد فى انتظاره مجموعة من (العصبجية) يسمون (سائقى تاكسى) ويجتهد كل واحد من هؤلاء فى نهب المسكين لمجرد إيصاله إلى الفندق هذا سائح لن يعود إلى مصر مرة أخرى رغم كل ما تفعله مصلحة السياحة.

وعندما يقف سائح مسكين عند الهرم ويجد نفسه محاطًا بعصابة حقيقية من أدنى مستويات المجتمع المصرى وهو لا يتحرك إلا وجد هذه الوجوه القبيحة حوله وهم يثقلون عليه ويضايقونه إلى الموت. حتى إنه لا يستطيع رؤية الهرم، والمسكين إذا عطش لم يجد إلا زجاجة زفت كولا يبيعه إياها رجل لا يوصف إلا بأنه متشرد. ويطالبه بجنيه ثمنًا للزجاجة وليس هناك مكتب سياحة محترم ولا مكان يستريح فيه ولا حتى دورة مياه، فإن هذا السائح يلعن اليوم الذى نزل فيه مصر وعندما يعود إلى وطنه سيحذر أى واحد من مواطنيه من الذهاب إلى مصر. وهذا لا يمنع من أن يكون لنا فى كل بلد مكتب سياحى فيه مستشار وكذا ملحق وهذه المكاتب ضرورية وإلا فأين يذهب. والله المحاسب؟.

وفى الأقصر مكتب لمصلحة السياحة أذهب إليه فى أى ساعة من ساعات النهار. فإنك لن تجد أحدًا. وإذا وجدت فشاب لا يعجبك ينظر إلى السائح الغريب وكأنه تلقيحة أو رزية لا استعلامات ولا معلومات ولا إرشاد إلى فندق ولا إنقاذ من براثن سائق تاكسى. أما إذا طلبت خريطة أو دليلاً فأنت ساذج فالمكتب ليس فيه شئون السياحة إلا اللافتة، والبهوات الذين يعملون فيه إذا حضر الواحد منهم مرة طالب بحوافز لأن المرتب الذى يأخذه هو نصيبه الذى يستحقه فى الوقف الكبير الذى يسمى وزارة السياحة.

ولكن القط بسبس الخبيث ألقى فى روع جهابذة السياحة عندنا أن العلاج الأكبر لمشاكل السياحة عندنا هو أن نشترك فى معرض السياحة العالمى الذى تقيمه منظمة السياحة العالمية أستا.

ومن حسن حظ القط بسبس أن المعرض أقيم هذا العام فى فلوريدا، قال:

وهيا يا أولاد نعملها هيصة: وفد من ١٥ عبقريا وبافيون أو جناح نكلفه مثلا ٢٠٠ ألف دولار، وفرقة رضا على البيعة وتحصلون على

الميدالية الذهبية، والميدالية الذهبية تعويذة سحرية تجعل كل سائحى الدنيا يتجهون بالألوف إلى مصر التى فاز جناحها بالميدالية الذهبية.

وذهب الوفد العظيم ومعه لا أدرى كم مهندس ديكور وكم فنان. ورقصت فرقة رضا وأخذنا الميدالية الذهبية.

وعدد السياح الذين أتوا إلى مصر هذا العام لم يزد على واحد على ٢٠٠٠ من الذين ذهبوا إلى إسبانيا، وإسبانيا المسكينة لم تحصل على ميدالية ذهبية أو فضية.

وفى المجموع جوالى نصف مليون دولار راحت فى سبيل ميدالية مطلية بالذهب إذا بعناها فهى لا تغطى حساب وجبة واحدة فى فندق، وأين تعلق هذه الميدالية؟.

على صدر القط بسبس! فهو صاحب هذه الخطة العبقرية وله الفضل فى التوفيق العظيم الذى وصلنا إليه.

– يا ناس، أما كان أذكى بالنسبة للسياحة فى مصر لو منعنا العمل فى مكاتبنا؟ لو أنشأنا مكتبًا فعالاً لتيسير أمر انتقال السياح من المطار إلى فنادقهم ومن فنادقهم إلى حيث يريدون؟ وإلى السيد وزير السياحة تجربة سياحية وقعت لى.

خرجت من مطار القاهرة معى حقيبة وكانت الساعة بعد العاشرة مساء بقليل، وما رآنى سائق تاكسى حتى حسبنى خواجة فأسرع إلى وطلب ١٥ جنيها لكى يوصلنى إلى الزمالك حيث يوجد فندقى كما قلت له. ووجدت لأننى وقعت فى كمين لأن هؤلاء الناس عصابة، واحد يقول ١٥ والثانى يقول ما معناه: علشان أنت راجل عجوز ١٢ جنيها، ودخلت السيارة على أن أدفع ١٢ جنيها. فلما مضت بنا وأصبحنا فى الظلام ووحشة الطريق قال (عواطلى)، كان يجلس إلى جانب السائق:

١٥ جنيها أو تنزل يا خواجة، وقلت بارتياح: لا لزوم لذلك: ١٥جنيها هذا حسن جدًا.. وأعطيت العنوان قرب نقطة بوليس الزمالك.

وعند القسم أوقفت السيارة وقلت للشاويش الواقف هناك: خد بالك لو تحركت السيارة فاضرب بالرصاص، أنا داخل للضباط إنه ابن أخى.

ومادام حضرة الضابط ابن أخى فقد كنت واثقًا من أنه لن يدع واحدًا من هذين الصعلوكين يتحرك. ولم أكن كاذبًا فكل ضابط بوليس فى مصر هو ابن أخى أو ابنى.

وقصصت على الضابط ما حدث بعد أن عرفته بنفسى وأخذوا الاثنين إلى الداخل وتبين أن السائق لا يحمل رخصة والرجل الذى معه لا يحمل بطاقة شخصية، وعاملها حضرة الضابط كما يستحقان وتركت عند الضابط خمسة جنيهات للسائق. وكذلك حقيبتى الكبيرة. وكان الشاب عند حسن الظن به، ومضيت إلى بيتى بحقيبة يدى وفى الصباح مررت فأخذت الحقيبة وعرفت حينئذ أنه عند الاستجواب بشأن رخصة القيادة والبطاقة أن هذين الإنسانين يفعلان هذا مع السائحين بانتظام.

ألم يكن أفضل بدلاً من الميدالية التى لا قيمة لها أن ننشىء مركز النقل للسياح فى المطار مع رقابة تامة على السائقين بحيث لا يركب سائح مع سائق تاكسى إلا عن طريق هذا المكتب، فى إسبانيا لا يهم فى المطارات هذه المكاتب ولديهم شركات سيارات وأتوبيسات لنقل السائحين. والمكتب يتصل بعد ساعة من خروج السائح برقم تليفون فندقه أو الجهة التى هو ذاهب إليها ليطمئن على مصير السائح.

ولكن، ما العمل والقط بسبس يتدخل فى كل شئوننا ويفسدها؟.

وإسبانيا ليس لديها قط بسبس وليس لديها نتيجة لذلك ٥٠٠ دكتور فى السياحة والفنادق لكن لديها ٤٠ مليون سائح فى الساعة.

□□□

وأنت قد قرأت مثلى خبر المستشفى الأميرى فى بلد مصرى كبير، هناك قالت لنا الصحف إن معظم الأجهزة الكبرى معطلة بما فى ذلك جهاز تعقيم حجرة العمليات.

فى مثل هذه الحالات أنا سيىء الظن وهناك مثل عربى يقول: إن سوء الظن من أقوى الفطن.

ويقول لى ظنى السيىء إن القط بسبس الذى عطل هذه الأجهزة لابد أن يكون واحدًا أو أكثر من هيئة العاملين فى المستشفى لأنه من غير المعقول أن تتعطل لمدة عام وأكثر أجهزة الأشعة والتعقيم والأوكسوجين. وهناك أطباء يعملون ويكشفون على المرضى.

وسوء ظنى يقول لى، إن جهاز الأوكسيجين إذا كان معطلاً فى المستشفى فهو لن يكون معطلاً فى عيادات الأطباء الخاصة، وكذلك الحال بالنسبة لجهاز الأشعة وجهاز تعقيم حجرة العمليات والمرضى يتعودون أن يتجهوا رأسا إلى عيادات الأطباء. لأن القط بسبس وشركاه عطلوا العمل فى المستشفى العام.

والقط بسبس عند الجاحظ كان مسكينًا هزيلاً ومظلومًا.. ولكن القط بسبس عندنا ثقيل الدم والوزن. ومن سوء الحظ أنه لا يعمل بمفرده فى الغالب فهناك دائمًا قطاقيط بسبس يعملون تحت إشراف المعلم بسبس الرهيب وفى هذه الحالة يكون اسمه بسبس كو.

وهل معقول يا ناس أن إنسانًا كان سائق لورى سنة لا أدرى كم. ثم نكتشف فجأة أن له كذا شركة وكذا عمارة وفيللا وعزبة. إلا إذا افترضنا أن يكون هناك شىء يمكن أن نسميه بسبس كومبانى ليمتد.. إنهم عصابة ضخمة كانت تعمل بهدوء ولها معاونون فى كل مكان؟ وقد كشفنا واحدا.. ترى كم قط بسبس آخر وشركاه؟ يعملون فى جد ونشاط الآن ويتستنزفون دمى ودمك..

وويل لنا جميعا من القط بسبس.

إنه هو الذى يعطى التراخيص وهو الذى يحرس أبواب الجمارك وهو الذى يسجل الشركات المشبوهة والعقارات المختلسة وهو الذى يفتح الأرصدة فى البنوك تحت ألف اسم مستعار ومكذوب. ومادمنا نائمين على آذاننا فهذه ولا شك مملكة القط بسبس وشركاه.

هذا الملعون الخبيث إنه وراء مصائبى ومصائبك وويل لى ولك. ولمصر كلها من القط بسبس والدكتور بسبس والمعلم بسبس ونسوانه وأولاده وأولاد أولاده وأقاربه أجمعين.

obeikandl.com

(١٠)

غريب فى وطنى*

خلال السنوات الأخيرة يطاردنى فى أحيان كثيرة شعور غريب بأننى لست فى مصر. أو أننى أعيش بعيدًا عن مصر التى نشأت فيها وأحببتها وتمنيت وأنا صبى ثم شاب أن أكون أحد العاملين المخلصين فى خدمتها أننى غريب فى وطنى لا أدرى لماذا أشعر أن الناس ليسوا هم الناس ولا المناظر التى ألفتها هى نفس المناظر.. حقًا إن الدنيا كان لابد أن تتغير ولكن الذى أعرفه أن كل بلد ينبغى أن تكون له خصائص أساسية لا يمكن أن تتغير فى صميمها حتى يظل البلد هو نفس البلد. وتظل له نفس الخصائص المميزة لشخصيته فقد درست وعشت طويلاً فى سويسرا وكان ذلك من نحو أربعين سنة. وسويسرا بلد يساير الزمن ولا يتوقف التطور فيه قط. ولكننى أعود بين الحين والحين إلى بازل وزيوريخ وبرن ولوتسرن فأحس أن هذه البلاد لازالت هى هى. لم تتغير شخصيتها ولم يتبدل الإطار العام للحياة فيها. وزيوريخ التى عرفتها أكثر من غيرها لازال نفس البلد كما هو رغم التطور الشامل فى كل شىء..

الباتهوف شترايس لازال هو نفسه كما عرفته وأحببته. وميدان بيركلى المطل على البحيرة لازال يزدان بأزهاره المختلفة الألوان. وميدان براده – بلاتس لازال كما هو فهذا هو البنك الذى كنت أصرف منه شيك مرتب البعثة. لقد تغير نظام العمل فيه تغيرًا تامًا وأصبح كله إليكرونيا ولكنه لازال كما عرفته ومحل الشيكولاته الممتع لازال هناك، والبنات البائعات ورثن الابتسامة والظرف والرغبة فى الخدمة عن سابقاتهن. فمحطة الترام لازالت أنيقة والترام نفسه لازال كما عرفته حتى ألوانه الزرقاء الزاهية لازالت باقية كما هى.. ولازال لى مكانى

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢١ نوفمبر ١٩٨٢م .

فيه، وهو إذا وقف انتظر حتى نركب كلنا فى هدوء ثم يمضى وأرقام الخطوط هى نفس الأرقام: رقم ٨ يذهب إلى ميدان المحطة ثم محطة سنترال ثم شارع شتابنبوك. ورقم ٦ يذهب إلى الجامعة. ورقم ٣ يذهب إلى شمال البلد: إلى رومر – هوف حيث كنت أسكن..

هنا فى القاهرة لم أعد أدرى أين أنا: الشوارع لم تعد هى الشوارع ولا الناس هم الناس. حتى الشارع: هنا كانت فيلا أنيقة هى تحفة فى الهندسة تحيط بها قطعة من الجنة هذه زالت وحلت محلها كتلة جامدة من الأسمنت والحديد والألومنيوم والزجاج. والذين يسكنون فيها خلق عجيب وجوههم عابسة كالحة، وكل منهم عنده سيارة أنيقة ولكل ابن من أبنائه سيارة وبناته القبيحات يلبس البلو – جينز وقمصانا رجالية يرخونها خارج البنطلونات ويحسبن أنفسهن أمريكيات: هالو ميمى! هالو توتو! باى باى! تقفز القردة فى الشيفروليه – كامارو وتنطلق بها كالصاروخ..

والسيد أبوها لم يتعود بعد على لبس البذلة. سمعنا أنه تاجر خردة وأنه كان إلى سنتين أو ثلاثة يرفل فى الجلباب واللاسة ثم دخل سوق الشياطين التى يسمونها الاستيراد والتصدير وانصب المال فى جيبه انصبابا وانتقل من بولاق إلى هنا وابنه محمد أصبح حمادة بيه وابنه زكى أصبح زيكو بيه وابنته سنية أصبحت سونيا والأخرى بثينة أصبحت بوسى وسعادة البيه أنفق ٣٠,٠٠٠ جنيه فى عمل الداكور.. لشقته. وقبل أن يفتح له السائق باب السيارة الأنيقة يبصق سيادته على الأرض ويلقى منديلا ورقيًا قذرًا وينجعص فى السيارة وتمضى به إلى جهنم..

أين مصر التى عرفتها يا ناس؟ هل أنا فى مصر أو فى بلد آخر؟ هل أنا لم أعد أنا. أم مصر هى التى لم تعد مصر؟ من منا الغريب عن الآخر؟ ولكن صديقًا كويتيًا ممن تعلموا فى مصر فى الخمسينات ثم

شغلوا فى بلادهم أرفع المناصب يقول لى: تصدق يا فلان: عندما أتينا فى البعثة إلى مصر أواخر الأربعينات لم نصدق أننا فى مصر. كانت الشوارع جميلة أنيقة فيها أشجار وفيلات. كان الترام جميلاً وكان الكومسارى مهذبًا وكانت الجامعة حرمًا للعلم فعلاً لقد درست فى قسم الجغرافيا فى جامعة القاهرة.. وكان الأساتذة علماء أجلاء تحسد نفسك لأنك تدرس عليهم: عباس عمار ومحمد عوض محمد ومصطفى عامر وعبد المنعم الشرقاوى وسليمان حزين وكان العمل فى مكتبة قسم الجغرافية متعة وكانت دار إقامتنا فى الزمالك وكنا نسير بعد الظهر فى شارع ٢٦ يوليو ونشعر أننا فعلاً فى أجمل شوارع الدنيا وكنا ندخل السينما فنستمتع بكل شىء: بالقاعة وبكراسى القطيفة وبالفيلم الجميل وبعد السينما كنا نأكل المكرونة بالفرن ونحن وقوف كانت «المكرونة بالفرن» فى بوفيهات سليمان باشا وشارع فؤاد أجمل طعام فى الدنيا ثم نأخذ الترام عائدين إلى دارنا ونحن نشكر الله من أعماق قلوبنا. لأنه يسر لنا فرصة الدراسة فى القاهرة وفى جامعتها العظيمة، أين هذا كله يا فلان؟ ماذا فعلتم بمصرنا وقاهرتنا؟ كيف ساغ لكم أن تبددوا من أذهان العرب هذا الحلم الجميل؟..

إذن فلست أنا وحدى الذى يشعر أنه غريب فى مصر. مصر نفسها لم تعد مصر، ولهذا فأنا فيها غريب.. عندما أريد أن أحس أننى فى مصر فإننى أسافر بعيدًا إلى لندن مثلاً وأجلس فى حدائق الريجنت بارك ويسرح بصرى فى الخضرة، الخضرة تذكرنى بخضرة مصر التى تتلاشى يومًا بعد يوم كان أستاذى عبد الحميد العبادى يسكن حى الروضة، وشارع المنيل كان معظمه حقولاً كنت أسير بينها حتى أصل إلى بيته، وكان رحمه الله يسكن فيلا وسط الخضرة وكنا نخرج معا نتمشى ونحن نتحدث فى التاريخ وذكريات تلك الأيام ونزهاتها وأحاديثها مع أستاذ

وسيم جليل هى التى أحلم بـها عندمـا أغمـض عينـى وأنـا جـالس فـى رياض الريجنت بارك. إنها مصر التى أبحث عنها الآن فلا أجدها..

وعندما أعود إلى مصر وأنا فى المطار أشعر بالغربة هذه ليست مصر، وصعاليك سائقى التاكسى على باب المطار ليسوا مصريين وعندمـا مضـى بى السيارة نحو بيتى فى شوارع خانقة مخنوقـة فـإننى أتـوه فـى عـالم غريب يذكرنـى بـأنفرنو دانتـى فـأصوات أبـواق السـيارات تقلـق الجـن والمطبات تخلع عظـام الجسـد، وعسـكرى المـرور نصـف نـائم والإشـارة الحمراء لا تحترم وعادم السيارات يملأ الجـو، وصعلـوك فـى سـيارة إلى جانبى يبصق من النافذة وناسًا أراهم من زجاج السيارة بلا وجوه وبشـرًا دون بشرية ونساء بلا أنوثة رءوسهن محشـورة فـى شـىء يشـبه نصـف جورب قديم وشباب متسكع يقطع الشارع عـدوا بـين السـيارات كأنـهم قرود، ورجال فى أسمال يبيعون الهواء والسيجارة لا تفـارق مناخـيرهم. أما كيف يعيشون ومن أين؟ فهذا سر عظيم..

وهذه القاهرة التى تختنق بألوف علب الصفيح التى يسمونها سيارات وألوف الألوف من ناس كلهم غاضبون ساخطون هذه القاهرة تغوص فـى الأرض يومًا بعد يوم وستصبح فى المسـتقبل مثـلاً بومبيـة مدينـة تحـت الآكام بعد أن طمرها البركـان. إننـا نبنـى للنـاس ممـرات علويـة فيـأبوا السير عليها ويفضلون أن يتسـللوا قفـزا بـين السـيارات كأنـهم قـردة أو أغناز لأن أحدًا لم يعلمهم كيف يتصرفون كمواطنين محترمين فى مدينـة جليلة لها احترامها، وفى كل ناحية وزير بلا وزارة ومحافظ بلا مدينـة وبلد بلا عمدة وبوابة بـلا بـواب ومكـاتب عظيمـة وسـكرتاريات ولجـان وسيارات للمحافظين ونواد للمحافظين والسادة المديريـن للشـئون العامـة وكل هؤلاء موظفون كبار وكلهم يقولـون إنـهم يبنـون قـاهرة سـنة ٢٠٠٠ وهم يقولونها دون خوف ففى سنة ٢٠٠٠ لن نكون نحـن هنـاك ولا هـم يكونون، إنما ستكون هناك أنفاق بلا مترو لأن المترو سيكون قـد تلاشـى

وتعطلت قطاراته وعرباته جميعا كما تلاشى الترام، وسيصدر المسئولون عن قاهرة سنة ٢٠٠٠ قرارا بإعدام المترو كما أصدر المسئولون اليوم قرارًا بإعدام الترولى باص بعد الطبل والزمر الطويل، ولكن الأنفاق ستبقى مطمورة تحت الأرض مثل الأنفاق المسيحية أو الكاتا كومز تحت حى كوم الشقافة فى الإسكندرية ولا بأس بذلك أيضًا ففى سنة ٢٠٠٠ ستكون الفيران قد توطنت القاهرة أو ما كان بالأمس القاهرة، والأنفاق للفيران. أما الناس فسيكونون قد انتقلوا إلى الجبانات ورقدوا هنا فى انتظارًا أن يكتشف مقابرهم المستر هوارد كارتر واللورد كارنرفون..

وقد يتوهم بعض من يقرءون هذا الكلام أننى أكتب وفى ذهنى نقد لرجال الحكومة، وهذا أبعد شىء عن خاطرى لأننى أعرف أن أى حكومة فى الدنيا لا تستطيع مهما صلحت أن تفعل أكثر مما يستطيعه الشعب، بالضبط كما أن أذكى الآباء وأقدرهم لا يستطيع أن يفعل شيئًا لابنه البليد أو الغبى. وقد انتهى العصر الذى كانت الحكومة فيه تعتبر نفسها راعيًا والشعب رعية وأصبحنا كلنا مواطنين متساوين، وأنت والوزير والمدير والخفير واحد، وحتى كبار المسئولين ليسوا سحرة أو صناع أعاجيب فلماذا نطالبهم بالأعاجيب؟ ومهما تبلغ قدرة المسئول الكبير على العمل فهو لا يستطيع أن يعمل أكثر مما يتحمله جسده، وقد عرفت وزيرًا كان يأخذ معه كل يوم إلى البيت حقيبتين مليئتين بالأوراق ويزعم لنفسه أنه سيدرسها فى البيت. وفى البيت يتعشى ويجلس إلى المكتب ويقرأ بضع أوراق ثم يتثاءب ويغلبه النوم فينهض وينام، ونفس الحقيبتين تعودان إلى الوزارة يحملها الفراشون أنفسهم، والناس يسألون والسادة الوكلاء يقولون إن الأوراق فى مكتب السيد الوزير لم يبت فيها بعد وظل الأمر على ذلك حتى تغيرت الوزارة، والحقيبتان أصبحتا اليوم أربعا. وأربعة فراشين يحملون كل يوم أربع حقائب ويسيرون خلف السيد الوزير ويعودون فى اليوم التالى بحقائبهم

خلف السيد الوزير. وفى الوزارة القادمة سيصبح عدد الحقائب ستا وعدد الفراشين ستا وستظل الحقائب تروح وتجئ إلى قيام الساعة، وستقوم القيامة إن شاء الله عندما يعود وزير إلى وزارته فى الصباح وقد قرأ كل الأوراق وأشار بقلمه بما يصنع فى كل منها.. هنا ستكون نهاية الزمان فعلاً..

أقول ذلك لأننى أرى أننا فى مسائل الإدارة والتاريخ لازلنا أميين ونحن لم نعرف بعد أن زمن الحكومة التى تصنع كل شىء قد انتهى، ولويس الرابع عشر حكم على أسرة البوربون بالموت يوم قال: الدولة هى أنا، لأنه عندما قال ذلك حمل نفسه أوزار الدنيا والذين حكموا على حفيده لويس السادس عشر بالموت فعلوا ذلك عقابًا له على أوزار لم ترتكبها، وجده «الملك الشمس» هو الذى حكم عليه بالموت، وأى وزير يسترسل مع الكلام ويكثر من التصريحات ويقول سأفعل كذا وكذا يحكم على نفسه بالموت السياسى، لأن الوزير أى وزير – لا يستطيع أن يفعل أكثر مما يستطيعه الشعب نفسه، وهو لا يملك أن ينقذ إلا ما يعرف مساعدوه كيف ينقذونه، وحتى إذا افترضنا أن السيد الوزير عبقرى فنحن لا نضمن بداهة أن يكون كل مساعديه عباقرة، وإذن فستظل عبقريته جوهرة مصونة فى دماغه، وفى زماننا هذا لم يعد الوزير حاكمًا وإنما هو منسق ومنظم ومفكر ومخطط، وهو قطعا ليس راعيًا ولا نحن رعية..

والذى أريد أن أقوله هو أننا لسنا على حق فى شكوانا من الدولة فنحن المسئولون من البداية إلى النهاية لأن الشعب إذا أراد استطاع أن يفعل ما يريد وما يراه من صالحه وما هو من صالح الشعب فهو – بداهة – من صالح الحاكم، والحاكم يريد أن يرى الناس يصنعون الصلح دون أن يستحثهم على ذلك أحد. هنا يستريح الحاكم وتخف مسئولياته

وهناك حكمة تقول: إن أنصف الناس استراح القاضى أو أنصف القاضى استراح الناس..

□□□

أقول ذلك لأننا – كشعب – لازلنا نتصرف على أننا رعية نحتاج إلى راع، ولا يمكن أن يهين شعب نفسه بأكثر من اعتبار نفسه رعية أى غنمًا لابد أن ترعى بعصا أو تحرس بكلاب، وسلطة الحاكم يحددها الشعب نفسه..

فإذا كان الشعب نشيطًا عاملاً ذكيًا واعيًا أمينًا مع نفسه قائمًا بمسئولياته فإن الدولة لا تستطيع أن تفرض نفسها عليه أو تمارس عليه سلطة لا يريدها، ومثل الدولة مع الشعب فى هذا مثل الرئيس مع المرءوس فإذا كان المرءوس قائمًا بواجبه مؤديًا ما عليه لم يعد له فى الحقيقة رئيس، وأنا شخصيًا فى كل عمل توليته كنت ألغى رئيسى بأن أقوم بواجبى على الوجه الأكمل فلا يبقى له عندى شىء وكل رئيس عمل لا يمارس سلطانه إلا على المهمل والمقصر والعاجز أما الكفء المواظب على العمل القائم بمسئولياته فماذا يعمل معه الرئيس؟..

فإذا كانت مصر قد تغيرت وإذا كانت الأحوال فى مرافقنا لا تسير على النحو الذى نريد فنحن المسئولون، وقبل أن نطالب الحكومة بشىء علينا أن نقوم بواجبنا ونتحمل مسئولياتنا، وكيف والله نشكو من الحكومة إذا كانت شوارعنا غير نظيفة، وهل من الممكن مثلاً أن تقيم الدولة لكل بيت عامل نظافة يرعاه؟! إن القذارة عندنا تبدأ من داخل البيوت، وماذا تفعل الحكومة لنا داخل البيوت؟ إن بعض سيداتنا يرمين زبالة البيت من النافذة إلى الطريق، فقل لى والله ماذا تفعل أى حكومة فى الدنيا مع سيدة من هذا الطراز، وفى معظم بيوتنا نجد مدخل البيت لا يسر وسلالم البيت لا ينظفها أحد، وهناك قانون يقول

بأن سكان كل بيت أو ملاكه لابد أن ينشئوا لجنة سكان أو لجنة ملاك ترعى بيتهم، فكم بيتًا أنشأ سكانه لجنة فعالة كهذه. كلنا نلقى القاذورات على السلم ونشكو من قذارة السلم! وكلنا نصعد بسياراتنا، على الرصيف ثم نقول أين الرصيف؟ من الذى يحطم الرصيف؟..

إن الدولة تبنى المساكن الشعبية وتسلمها للناس ثم تمر بعد سنة بالبيت فتراه يكاد يتحول إلى حطام، فكيف يكون هذا تصرفنا ثم نشكو من الحكومة؟ إن أسوأ المساكن فى مصر هى المساكن الشعبية، والمساكن الشعبية تتحمل الدولة الكثير فى إنشائها وتسلمها للناس ليعيشوا فيها ويحترموها، فانظر والله ماذا يفعلون بها إن بين كل بيتين مساحة المفروض أنها تتحول إلى حديقة، ولكن الناس يجعلونها مزبلة ثم يشكون! يا للعجب!!..

هذه المساكن الشعبية فى أوروبا قطع من الجنة، ولقد زرت فى مدينة تورينو فى إيطاليا المساكن التى أنشأتها شركة فيات للعمال، إنها تسلمهم إياها بإيجار لا يكاد يذكر، وعليهم أن يقوموا برعايتها وهم بتعاونهم فى ذلك ومجهوداتهم المشتركة يجعلونها قطعًا من الجنة، بمجرد أن يتسلموها ينسئون لجنة لرعاية البيوت، وأهل كل بيت لهم لجنة مسئولة عن كل شىء فى البيت إلى بابه، ثم تقوم لجنة حى المساكن الشعبية برعاية الحى كله: ينشئون الحدائق وأماكن للعب الأطفال، وينشئون لعبات لأطفالهن ويتناوبون على حراستها ورعايتها، وقد رأيت مجموعة من هذه البيوت فى شكل مربع كبير فى وسطه مساحة واسعة يعلوها حديقة ومتنزها وملعبًا للأطفال، والأطفال يلعبون وأعين أمهاتهم عليهم، والمسنون والمتعبون يجلسون على مقاعد خشبية يستريحون من ناحية ويراعون الأطفال من ناحية، جلست فى هذه الحديقة أتأمل الأطفال ووجدت نفسى أشترك فى رعايتهم وقلت لنفسى

حقًا إن الناس لا يستطيعون أن يفعلوا لك أكثر مما تستطيع أنت لنفسك.

وفى مدينة العمال فى تورينو مراكز تموين يديرها السكان أنفسهم، هم الذين يعينون الموظفين ويشرفون عليهم والشركات تقدم لكل مركز حاجياته من لحم أو خضر أو سمك أو خبز، وإلى هنا تنتهى مسئولية الشركة والباقى على الناس، والناس يراقبون الجمعية وموظفيها وكل واحد منهم يأخذ نصيبه القانونى من كل شىء دون زيادة، ولا يجرؤ موظف الجمعية هناك على أن يتصرف فى رغيف خبز أو قطعة صابون إلا بحسب النظام الموضوع، ولا تجد فيها شجارًا ولا نزاعًا لأن الناس يحترمون أنفسهم ولأنهم يحترمون أنفسهم فإن الناس يحترمونهم، والعاملون والعاملات فى الجمعية يعملون بدقة وأمانة لأن أعين الناس مفتوحة، كلهم يعلمون بروح الأسرة، كلهم يحملون المسئولية.

فإذا كنت تجد فوضى فى جمعياتنا التموينية فاعلم أننا نحن المسئولون، كل منا يدخل لينهب لا ليأخذ نصيبه فحسب، وموظف الجمعية لا يلام إذا أساء معاملة الناس أو إذا تصرف فى مواد التموين على هواه، لأنه يعلم أنه يتعامل مع ناس لا يحترمون أنفسهم ولماذا يحترمهم إذا كانوا يفعلون بأنفسهم ما نعرفه جميعا..

ولو كنا نحن نراعى الله والضمير واحترام النفس فى تعاملنا مع الجمعية لما اندست فى طوابيرها جماعات الدخلاء والوسطاء والنسوان الكالحات الوجه اللاتى يشترين أصناف التموين ليبعنها بعد ذلك فى السوق السوداء، والسوق السوداء من أولها لآخرها من صنع الشعب لا من صنع الحكومة، نحن الذين نهرب، ونحن الذين نرتشى، ونحن الذين نغمض أعيننا على القذى ثم نشكو الرمد..

وإذا كنا نحترم أنفسنا فـها كنـا نرضـى أن نقـف فـى هـذه الطوابـير الذليلة أمام البقالات فى انتظـار السجائر؟ إننـى واثـق مـن أن كميـات السجائر التى تصنـع فـى مصـر كافيـة لكـل المدخنـين ولكننـا نتكاسـل ونتساهل ونشترى بعض ما نحتاجه مـن السـوق السـوداء ومادمنـا نفعـل ذلـك فإننـا نشـجع السـوق السـوداء بـل نحـن نوجدهـا ومادمنـا نحـن المسئولين عنها فلماذا نشكو؟ ولماذا ندعى أننا مظلومون ونحن ظالمون؟..

□□□

وما رأيت فى حياتى موظفًا عامًا يسىء معاملـة مواطـن إلا إذا أحـس أن المواطن مستعد للتـهاون فـى حقـه وفـى كرامتـه أيضًـا. نحـن ننتظـر الموظف الذى بتأخر فى الحضور إلى مكتبه فإذا حضر داعبناه وتملقنـاه، وما من مرة وقفت أمام موظف متهاون وأظهرت الحزم والجدية واحـترام النفس إلا انصاع أمامى واحترم نفسه، وأمام شـباك التذاكـر فـى محطـة سيدى جابر رأيت عامل التذاكر قدم علينا إنسانًا فى غير دوره فأنتهرته وأنتهرت المواطن، وحاول مرة أخرى أن يعطى تذكرة لفراش دخل عليه من باب الحجرة فعدت أحتـج وهنـا أيدنـى النـاس وانتظـم العمـل فـى طابورنا، ولا يمكن أن أتساهل مع موظف لى عنده مصلحة لأننى أعـرف أنه جبان لا يتحمل تبعة تصرفه الخاطئ.

فإذا كنا نسمع عـن مختلسـين ومـهملين ومقصريـن ومرتشـين فنحـن المسئولون عـن أعمـالهم جميعـا، حقًـا إن بعـض الرؤسـاء يـتراخون مـع موظفيهم ولكنهم يفعلون ذلك لأن التراخى يبدأ مـن عندنـا نحـن، وكـل الذين نتحدث عنهم ونقول إنهم جمعوا الملايين من أموال الشعب فعلـوا ذلك لأنهم يستهزئون بنا ولا يحترموننا قـط، وهـل كـان مـن الممكـن أن يفعل بعـض الأشـخاص الذيـن تحقـق معـهم السـلطات اليـوم مـا فعلـوا إلا ولهم معاونون منا ومشاركون لهم فى الجرائم من بيننا: مشاركون بل شـركاء يعملـون فـى الجمـارك وإدارات الـتراخيص ومكـاتب الرقابـة،

والكثيرون منا كانوا يعلمون الكثير ويسكتون، ويكون أقصى ما يفعلونه هو الشكوى والنجوى بعضهم إلى بعض، وحالهم فى ذلك حال الرجل يعلم بخيانة زوجته فلا يكون منه إلا أن يشكو امرأته إلى الناس، ومعذرة إذا أنا لجأت إلى هذا المثل الجارح للحشمة، ولكنى لجأت إليه لأننى أعرف أن عصب النخوة للعرض عندنا حى وشديد الحساسية، ومسألة العرض أو شرف العائلة عندنا حية جدًا. ولهذا فأنا أقول لأخى المواطن إن الوطن كله هو عرضنا جميعا وشرفنا كمواطنين فإن الذى ينتهك حرمة القانون تحت بصرنا ونحن سكوت هو فى الواقع يعتدى على أعراضنا جميعا، وإذا كان الواحد منا لا يحتمل كلمة فى حق امرأته أو بنته أو أخته فكيف يحتمل العدوان على عرضه الأكبر وهو الوطن وهو ساكت؟.

إننا نشكو من العدوان على أرض الدولة وأملاكها مع أنه كله يقع تحت بصرنا ولا نتحرك، وليس هناك لص واحد إلا وهناك ألف إنسان يعرفون أنه لص ويسكتون، وهم فى هذه الحالة لصوص مثله، وقد حدث مرة أن أطللت من نافذة المطبخ فى بيتى فى حى المنيل من نحو ثلاثين سنة فرأيت عربة تفرغ رملا وأخرى تفرغ طوبًا فى أرض فراغ وراءنا، وكنت أعرف أن هذه أرض أوقاف فهى ملك المسجد المجاور لنا ومضيت بسرعة لأجد رجلاً أصلع أقرع يقف ويأمر العربات بالتفريغ فسألته عما يفعل فقال:

– هل هذه الأرض أرضك؟.

– نعم هى أرضى، إنها أرض الأوقاف وهى تبع لهذا المسجد.

– وهل أنت مندوب عن وزارة الأوقاف؟.

– لا. ولكنى مواطن أعرف أن هذه الأرض أرض الحكومة، ولا يجوز لك البناء فيها.

وتشاددنا وتلاحينا وتشددت فى موقفى وتعالت أصواتنا وتجمع الناس فلما رأونى متعافيًا قويًا انضم بعضهم إلى وأصبحنا بعد قليل جماعة، وطالبنا الرجل بإثبات ما زعم من ملكيته للأرض، وكان بعض الباعة قد استعمل أطراف الأرض المطلة على الشارع ليبيعوا فيها أشياءهم فاستعديتهم عليه، وبعد قليل وجد الرجل نفسه فى موضع سيئ فانصرف وهو يتهدد ويتوعد زاعمًا أنه يشكو إلى البوليس فلحقت به والناس معى وأصررت على اقتياده إلى مركز الشرطة وتحرج مركز الرجل وأحس أنه لص وأصبحت غاية همه أن يفلت من يدنا وتركناه يمضى وطلبت إلى الناس أن يبددوا الطوب فبددوه فى لحظة، وهددنا العمال الذين أتى بهم الرجل فانصرفوا ثم أخذت بعض الناس وذهبت إلى نقطة البوليس وحررنا محضرًا ضد الرجل وتردد ضابط الشرطة لأنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل لهذا المحضر ولكنى طمأنته وبعد تحرير المحضر وتوقيعه من بعض الحاضرين ذهبت به فى اليوم التالى إلى وزارة الأوقاف وتحدثت مع مدير إدارة الأملاك ثم إلى وكيل الوزارة وكنا نعرف هذا الأصلع الأقرع وعنوانه فصدر بعد أيام تنبيه من الأوقاف إلى الداخلية ثم إلى نقطة البوليس، وأنقذنا أرض الدولة بذلك، ويلقانى الرجل بعد ذلك ويقول: لقد أضعت رزقك بنفسك كنت سأبنى بيتًا من عشرة طوابق، ولو أصغيت لى لأهديتك طابقًا كاملاً، ولكن ليس لك فى الطيب نصيب! وأقول له نصيب فى عينك! وهى فى السرقة شىء طيب يا أصلع يا أقرع يا حرامى!.

أتريدون أن نسترد معا مصر الجميلة؟ هل تريدون أن تستعيد جمالها وبهاءها وأن يتلاشى شعورنا بالغربة فيها؟.

إذن فاسمعوا هذا المثل من الواقع.

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى كانت مصر حماية أى مستعمرة بريطانية، وكانت بريطانيا تنوى أن يستمر احتلالها إلى الأبد، وكان

يؤيدها فى ذلك سلطان البلاد، يؤيد الاحتلال، وحكومتها برئاسة محمد سعيد باشا كانت مستعدة للتسليم بالاحتلال، وهى والوزارات التى جاءت بعدها وقفت موقفًا معاديًا لاستقلال مصر.

فنحن الذين استعدنا مصر من أيدى الاحتلال ومن تحريرها نحن أبناء مصر.

نحن أيدنا سعدًا وأصحابه ووقفنا معهم وحاربنا الإنجليز والسلطان فؤاد وحكومات الاحتلال، نحن ضحينا وحاربنا واستعدنا مصر ونحن اليوم نعانى من احتلال ربما كان أبشع من الاحتلال الإنجليزى.

نحن نعانى من احتلال بعض المصريين لبلادنا: اللصوص وتجار السوق السوداء والمهربون والمرتشون والمهملون والفوضويون والذين لا يحترمون هذا الشعب لأنهم لا يحبون مصر هؤلاء هم المستعمرون الجدد، هؤلاء هم الذين يجعلوننا نشعر أننا غرباء فى بلادنا.

ونحن بتهاوننا وسكوتنا وتراخينا وعدم مبالاتنا نقوم بدور وزارات الاحتلال: نشجع كل هؤلاء على احتلال بلادنا وإفساد طبعها وشكلها وتشويه سمعتها وتضييع أموالها والهبوط بمكانتها.

نحن – كل منا فى موقعه – متآمرون على مصر متهاونون فى حقوقها مضيعون لمصالحها والساكت عن الحق شيطان أخرس.

نحن نحكم على أنفسنا بالغربة فى بلادنا.

تريدون أن نعود إليها؟ تريدون أن تعود مصر الجميلة جميلة؟ إذن فلنبدأ كل منا فى موقعه..

ولتكن نقطة البداية عناية أهل كل بيت منا ببيتهم وأهل كل شارع بشارعهم وأهل كل حى بحيهم، إن الطريق طويل ولكن أقصر الطرق تبدو طويلة فى نظر النملة، وأطول الطرق تبدو قصيرة فى نظر الفهد النشيط القوى وحذار أن نرضى بأن نكون نملا وحشرات هنا تطؤنا الأقدام، ونكون نحن المسئولين.

لقد انتصرنا وأثبتنا أننا شعب عزيز يملى إرادته على التاريخ أيام كنا فى حكم الظالمين فما أجدرنا اليوم بالمحافظة على بلادنا جميلة زاهرة والدولة اليوم دولتنا ورجالها منا وبنا ولنا.

إنما نحن الذين نحكم على أنفسنا بالغربة فى بلادنا لأننا ننسى أن مصر كلها أسرة وأهلها كلهم أبناء عم أو أبناء خال، وهل لنا جميعا أم إلا مصر أو أب غير النيل؟.

obeikandl.com

(١١)

نار اسمها الفلوس*

الفلوس حلوة بديهية لا تحتاج إلى بيان، فالناس جميعا يفهمونها ويرددونها حتى الصبيان والغلمان..

وأكثر من ثلث الأدب العربى كله نثرًا ونظمًا يدور حول الفلوس، إنه أدب تسول، ومحوره المال وفضل المال وأساليب استخراج الدنانير من جيوب الحكام والناس العظام، وأديب عربى عظيم وفيلسوف أيضًا يسمى أبا حيان التوحيدى ألف كتابًا ضخمًا يعتبر من عيون الحكمة عندنا يسمى «الامتاع والمؤانسة» وهذا الكتاب كله شهادة فقر أو عرضحال تسول، وأبو الطيب المتنبى انفق نصف شعره فى التسول، ولكنه كان متسولاً منفوخا يتحدث فى شعره عن المجد والعلا والسؤدد، ويده ممدودة تنتظر الدنانير، أما مهيار الديلمى – وهو من عبقريات الشعر العربى – فكان يكتب القصيدة العصماء يشحذ بها عشرة دراهم أو فروة خروف أو طبقًا من العاشوراء.. وعلى بن أبى طالب، قال لو كان الفقر رجلاً لقتلته، وهو لم يقتله لأنهم لم يمهلوه، والذين قتلوه هم الذين حكموا على أمة العرب بأن تكون أمة فقراء ومتسولين تأكل من يد السلطان، والسلطان كان اسمه معاوية بن أبى سفيان، وقاعدة الحكم التى وضعها معاوية ومن بعده تقول: إن الخليفة لابد أن يكون الغنى الوحيد وتكون بقية الأمة متسولين، وبناء على ذلك أصبح نهب أموال الناس حقًا من الحقوق المقررة للحكام، ثم جاء صعلوك يسمى أبا الحسن على الماوردى فجعل السرقات السلطانية حلالاً، وقال كلامًا كثيرًا فى هذا المعنى فى كتاب سماه «الأحكام السلطانية»..

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٦ يناير ١٩٨٣ م .

وحكامنا إلى أيام عبد الحميد والخديو إسماعيل كانوا لصوصًا، بل قطاع طرق، وأجهزة الحكم كانت تمارس سلطاتها على أساس أنها إدارات جريمة منظمة..

والمافيا لم يخترعها الصقليون، بل هى اختراع أموى عباسى، ووزراء بنى العباس هم أصحاب الفضل فى وضع قواعد ممارستها وتحويلها إلى نظم إدارية، وكتاب «الوزراء» لأبى هلال الصابى تستطيع أن تسميه دليلاً، وكتابه قواعد لممارسة المصادرات والسرقات وإهدار الأموال والكرامات بقوة السيف وسلطان الظالمين..

ومن خلال هذا الأدب الحزين كله وما نشأ عنه من ممارسات مخيفة تستطيع أن تقول إن خلاصة تاريخنا الاقتصادى كله أنه تاريخ فقر أسود. والمال الذى هو إحدى زينتى الحياة الدنيا أصبح على أيدى سفلة الحكام نقمة الحياة الدنيا، أما الزينة الأخرى وهى البنون، فإن الجاحظ يقول فى كتاب البخلاء إنهم نكبة وبلاء..

والقاعدة التى سار عليها الحكام هى أنه لا يمكن أن يكون فى البلاد إلا رجل غنى واحد، هو الحاكم، والباقى لابد أن يكونوا تعساء، ومعنى ذلك أن سعادة الحاكم شقاء للرعية، أما عصر السعادة للحاكم والرعية فقد انتهى بوفاة عمر بن الخطاب عليه ألف رحمة تنزل من الله..

وقد طبقت هذه القواعد فى مصر من أيام أحمد بن طولون الذى كان إذا سمع إن عند رجل مالاً أو قصرًا أو امرأة جميلة آله ذلك ألمًا شديدًا، ولم يسترح إلا إذا جرده من المال والقصر والمرأة جميعًا. والبلوى المؤرخ يقول إن أحمد بن طولون كان رجلاً رحيمًا لأنه كان يكتفى بأخذ المال وإلقاء صاحبه فى السجن دون أن يقتله. فهو صاحب فضل على أى حال، وفى سجون أحمد بن طولون عاش ١٤٠٠٠ رجل فى سراديب تحت الأرض يسمونها «المطبق» وقد طبق حكام مصر هذه

القاعدة أيام الفاطميين الذين ضربوا أسوأ الأمثال فى نهب الرعية، والمعز لدين الله جمع ذهب مصر كله ووضعه فى سراديب تحت الأرض، كان لابنه العزيز وزير يهودى الأصل يسمى «ابن كلس» خلد اسمه فى التاريخ بأنه قضى وحده على صناعة النسيج فى شمال الدلتا وكانت أزهر صناعات النسيج فى العالم العربى؛ وذلك لكثرة الغرامات التى فرضها على الصناع فاقفلوا المصانع، وكان سلاطين المماليك أساتذة فى فنون السرقة والقتل والظلم، وآخرهم وهو السلطان قنصوه الغورى خرب بيوت الناس جميعا، وعندما أراد أن يبنى جامعا يتقرب به إلى الله سرق الرخام والنحاس والأخشاب من المساجد الأخرى، فسمى الناس جامعه – وهو جامع السلطان الغورى الباقى إلى اليوم – بالمسجد الحرام..

والعثمانيون أسرفوا فى تطبيق هذه القاعدة حتى كان بعضهم يخطفون أولاد الناس ويبيعونهم ليحصلوا على المال. ومحمد على باشا بدأ حكمه بإصدار قرار يجعل كل أرض مصر وما عليها ملكه، والخديو إسماعيل باع للأجانب كل ما يمكن بيعه من مصادر الخير فى مصر، ووضع المال فى جيبه، وعندما نفوه من مصر خرج ومعه ٨ ملايين جنيه من الذهب، ويقول ابنه توفيق إنها كانت ١٣ مليونًا، لا ٨ ملايين، ويبدو أن المسألة أصبحت وراثية فى الحكام؛ لأن جمال عبد الناصر افتتح حكمه السعيد بمصادرة كل أموال الناس وابتكار ستار للسرقة يسمى الحراسة. وفى صباح يوم من أيام خريف ١٩٥٢م نشرت جريدة الأهرام فى صفحتها الأولى بيانًا مخجلاً يتضمن أسماء كل المصريين الذين وجدوا عندهم مالاً، وصادروا ذلك كله لأنهم اعتبروا كل غنى لصًا، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان غنيًا وشريفًا فى آن واحد. وقد صفق الناس لهذه الجريمة البشعة واعتبروها بداية الإصلاح. وكانوا لسذاجتهم

يظنون أن هذه الأموال عليهم، ولكنهم لطموا الخدود بعد ذلك؛ لأنهم عرفوا أن الأموال المصادرة خرجت من جيوب ودخلت فى جيوب أخرى، وشقق الحراسة وزعت بالعدل والقسطاس بين الغزاة، وأحمد عبود باشا عوقب لأنه أنشأ لمصر صناعات وشركات، فجردوه من أمواله ومات الرجل فقيرًا منفيًا فى أوروبا، وشركاته العظيمة تولاها مديرون أكفاء جدد من أقارب الغزاة، وكان واحد منهم مدرس ألعاب رياضية فخربوها وجلسوا على تلها. والشركات التى أفلست وزعت أرباحًا على العمال: لأن جمال عبد الناصر أراد ذلك، وبأمر منه يزيد المطبوع من أوراق النقد ملايين، وكل ذلك إصلاح «اقتصادى» فى رأى الفلاسفة، وإصلاح اجتماعى فى رأى بعضهم الآخر، والمسألة هنا مسألة اجتهاد، ولكل مجتهد نصيب فى أموال الحراسات وشقق الحراسات وكله فى العيلة.. والسرقات تصبح حلالاً بقوانين. وكان هناك صحفى كبير وظيفته الأولى الدفاع عن ذلك كله..

وكل هذا التاريخ غير الزاهر جعل المال بالنسبة للمصرى أمرًا غريبًا، فهو لا يعرف كيف يؤكل أو كيف يشرب، وهو معذور، وعندما جاءت ثورة التصحيح وكانت ثورة حقًا بالنسبة لتاريخ مصر كله، ولو لم يكن لأنور السادات غير هذا الفضل لكفاه، فللمرة الأولى من مئات السنين أمن المصرى على نفسه وماله، وأصبح العدوان على مال الناس جريمة أما مال الدولة فلم توضع قوانين للتصرف فيه، لأنه ليس مالاً مصريًا، بل مال الشيطان، ولهذا فقد طردوا رئيس ديوان المحاسبة وأغلقوا الدكان وعلقوا على بابه لافتة تقول: مغلق للتحسينات.. وجاءت قوانين الانفتاح، واندفع الناس فى سعار جمع المال، وأصبحت المسألة حمى شملت الجميع، فجأة تحول الناس جميعا إلى طلاب مال وغنى، وأصبحت المسألة سباقا اشترك فيه كل الناس: الطيب

والمهندس والمدرس والمحامى والنجار والسباك والمبلط وبواب العمارة وبائع الفول المدمس وبائع الذرة المشوية وسايس الجراج ومنادى السيارات وكلهم أرادوا أن يكونوا أغنياء فى نفس الوقت وبأسرع ما يستطيعون..

وظهرت حكاية الاستيراد بدون تحويل عملة أجنبية، وألوف الناس تحولوا من صعاليك إلى تجار، وبائع اللب والسميط والروبابيكيا والوزير المفوض السابق افتتحوا مكاتب تصدير واستيراد. كلهم يصدرون شيئًا واحدًا هو الجنيه المصرى. يجمعونه ويبادلونه بالدولار بأرخص سعر، المهم أن يحصلوا على العملة الأجنبية، وهنا يبدأ الاستيراد.. استيراد كل شىء هايف وغير مفيد وبيعه فى مصر بأغلى الأسعار لناس كانوا يحتاجون لكل شىء والقاعدة تقول: اشتر أى شىء واضرب الثمن فى عشرة وأدخل به السوق الحرة. وفى بورسعيد أتعس سوق حرة فى الدنيا، إنها حرة للبائع ولكنها سوق عبيد للمشترى، والمشترى فى الغالب من نوع البائع، وكلاهما يغش الحكومة ويغش الناس، ويسرق مال النبى، المهم أن يغتنى، وهم يشترون أسوأ أصناف البضائع من أرصفة نابولى وحوارى ميلانو، ثم يضعون عليها «اتيكيتات» من أرقى محلات لندن وباريس، وبالأمس فقط رأيت واحدا منهم يشترى أغطية مقاعد سيارات فى ميلانو، يشتريها بخمسة عشر دولارا ليبيعها فى مصر بمائة وخمسين جنيها وهو يسمى ذلك تجارة، بالضبط كما كان المعز الفاطمى ومحمد على باشا يسميان السرقة تنظيمًا اقتصاديًا، وعبيد الله الفاطمى أول خلفاء الفاطميين فى المغرب بلغ القمة فى التضليل، فعندما غدر بوزيره وداعيته أبى عبد الله الشيعى وقتله، قال: إنه أكرمه بذلك، فقد طهره بذلك وأعده لدخول الجنة طاهرًا من الذنوب كما ولدته أمه وليس هذا كلامًا من عندى بل هو وارد على لسان داعى دعاة الفاطميين القاضى النعمان بن محمد فى كتاب «افتتاح الدعوة»..

وحمى الفلوس التى انتابت المصريين جميعا ابتداء من سنة ١٩٦٠م أصبحت مع الزمن نارًا بل حريقًا هائلاً، كل واحد منا يحرق الآخر: تاجر الجملة يحرق تاجر القطاعى وتاجر القطاعى يحرق العميل، فإذا كان العميل طبيبًا فهو يحرق المريض، وإذا كان مهندسًا فهو يحرق المقاول، والمقاول يحرق صاحب المبنى، وإذا كان صاحب المبنى هو الحكومة لم يكتفوا بحرقه.. بل لابد من حرقه وأكل لحمه مشويًا، وإذا كان صاحب المبنى غير الحكومة فإنه يبيع مبناه شقفا ويحرق كل من يشترى منه. وإذا كان الحصول على خلو الرجل من الناس محرمًا فإن حرقهم حلال، وليس هناك قانون ينص على عقوبة لهذه الجريمة، وهناك ألف طريقة لإحراق الناس حرقًا حلالاً: تعال إلى قطعة أرض وساوم أصحابها واشتراها منهم شراء مبدئيًا، وضع لافتة تقول: إنك ستبنى هنا عمارة من عشرة أدوار، والبيع على الخريطة، والخريطة غير موجودة. فى الأسبوع الأول ستحصل على ثمن الأرض وتدفعه، وفى الثانى تدفع للمقاول تكاليف الدور الأول وتقبض من الناس وتبنى الثانى، وهكذا حتى تحصل على ثمن الأدوار العشرة، وتبنى أنت على مهل والناس تنتظر، ومن يرفض الانتظار فهذه نقوده، وتبنى الأدوار العشرة أى كلام، وتسلمها وتعلن عن ١٠ فوقها، وتبنى دون ترخيص ولا يهمك، فإن القانون لا يلزمك إلا بغرامة ألف جنيه عن الدور، وأنت تبيع الدور بمائتى ألف جنيه، وعمارة والثانية وتصبح مليونيرًا، وتفتح مكتب مقاولات، وابنك الخيبان يصبح مهندسًا استشاريًا، وابنك الثانى يصبح مديرًا لمكتب تصدير واستيراد، وابنتك تصبح - بالواسطة - مرشدة سياحية وتتزوج عريسًا «قد الدنيا» وتصبحون جميعا ذواتا أبناء ذوات، الأولاد طول النهار فى النادى، والبنات يجمعن كاسيت أحمد عدوية وخوليو ايجليسياس، وأنت باسم الله ما شاء الله متربع فى المقعد الخلفى للمرسيدس أو الفولفو، وفيلا فى المهندسين وأخرى فى المعمورة

وثالثة فى العجمى والبقية تكتبها باسم الست حرمك أو الهانم بنتك أو المحروس ابنك أو زوج بنتك..

ونار الفلوس أصبح لها مقياس وهو عم سيد السباك، وعم سيد السباك أصبح المثال الذى يحتذيه الجميع فالطبيب يفرض عليك عشرين جنيها أجرًا للكشف يحصلها منك شيخ خفر يسمى المرض قبل الدخول، وتنتظر ساعتين أو ثلاثًا لكى يجئ دورك فى دخول الجنة، ويعطيك شيخ الخفر النور الأخضر لتدخل على الطبيب، والمسألة محسوبة: دقيقتان لك تحسب فيهما مرضك وصفًا شاملاً بينما يتكلم الطبيب فى التليفون ودقيقتان كاملتان للكشف الدقيق. وخذ نفسًا وأخرج نفسًا، وكمان نفس، ونقرتان على يمين ظهرك، وأخريان على يساره، والبس هدومك وها هى ذى الروشتة فيها أدوية لأمراض الدنيا كلها وتأخذ هذه الأدوية أسبوعين ثم تأتينى! وغيره يا شيخ الخفر واللى بعده يا شيخ الخفر! والطبيب يعمل وكأنه محصل فى سوبر ماركت وهو يشنف أذنيه بأنغام أجراس الكاش - ريجستر، وفى منتصف الليل نقفل الدكان ونحصى مع شيخ الخفر حصيلة الماكينة، وحقيبة سومسونايت نقفلها بالقوة على ألوف الجنيهات، والعيادة أصبحت وكأنها دار سك العملة، ورصيد البيه الدكتور فى البنوك الأربعة التى يضع فيها أمواله يتعالى، والأولاد المحروسين لكل منهم سيارة، والهانم هى الأخرى لها سيارة، وعمارة فى المهندسين وأخرى فى مصر الجديدة وحريق الفلوس لا يتوقف، وتقول للطبيب:

- يعنى يا دكتور مش كتير الكشف خمس دقائق بعشرين جنيها..

كتير أزاى.. إذا كان المعلم سيد السباك يأخذ فى العملية الواحدة مائة ومائة وخمسين جنيها..

لأن منادى السيارة رفع بقشيشه من خمسة قروش إلى عشرة.. - وهكذا يصبح المعلم السباك القدوة، إنه المثل الأعلى للجميع! الطبيب

والمهندس والمحامى والمدرس، وحريق الفلوس يأتى على كل شىء، وفى أيامنا – يرحمها الله – كنا نحن القدوة، والسباك يتعلم منا، أما اليوم فإن البيه الدكتور يتعلم من السباك، بل من المبلط وسائق التاكسى، بل أعرف رجلاً رفع أجر الكشف من خمسة جنيهات لعشرة

ومع الساعات ترتفع حمى الفلوس ويشتد السباق نحو الفلوس والمدرس الذى كان فى العام الماضى يأخذ خمسة جنيهات فى الدرس الخصوصى جعلها هذا العام سبعة وأضاف تجديدًا، وهو أنه ضبط ساعته كل صباح على ساعة الجامعة لكيلا يخطئ ويعطى التلميذ دقيقة زيادة، ومدرس العربى الشيخ مفتاح أدخل تجديدًا آخر: التلميذان بثمانية جنيهات وتصحيح موضوع الإنشاء مجانى أو هدية من المحل كما يقولون: وستستمع عن قريب عن مدرس يوزع أجندات هدايًا على الزبائن فيها أسعار الدروس بالجملة والتجزئة وأسعارها فى الصباح وبعد الظهر والمساء إلى منتصف الليل لأنه رجل يساير الزمان وتغير الأحوال..

وتقول للأستاذ المدرس:

مش كتير ثمانية جنيهات على ساعة تدريس يا أستاذ؟..

– كتير أزاى؟ يا مبارك؟ دى الخدامة التى تعمل عندنا من الصبح إلى الظهر رفعت أجرها من ٦٠ إلى ٨٠ جنيها فى الشهر..

وهكذا أصبح الأستاذ المتخرج فى الجامعة يأخذ القوة من البت سعدية المتخرجة فى كفر أبى جهل، والدنيا انقلبت والمقاييس تغيرت، ولكل زمان دولة ونسوان.

والحريق مستمر، وأسعار كل شىء ترتفع تلقائيًا مع مرور الزمن، وما تدفع فيه خمسة جنيهات اليوم ستدفع فيه ستة فى الشهر القادم وسبعة فى الذى يليه، وفى حالات كثيرة تضطرب نسبة الزيادة لأن

الفلوس فقدت قيمتها ولأن الناس أصبحوا لا يفرقون بين الجنيه والعشرين، وهناك أوسطى مبيض استقدمناه لبياض الشق، فجعل يتظاهر بأنه يقيس ويتمتم بيده كأنه يحسب ثم قال: ٦٠٠ جنيه بحساب المتر ثلاثة جنيهات:

– وكيف حسبتها يا معلم؟.

– هذا شغلى وأنا أعرفه.

– طبعا البياض شغلك ولكن الحساب شغلتى.

– وشغلتى أنا أيضًا.

– إذن يا معلم ٧ × ٦ بكام؟.

هوه امتحان ولا امتحان.. شوفو لكم مبيضا غيرى.. مضى وهو يبرطم ويقول: زبائن آخر الزمن! أل يمتحنونى آل.

وهذا الحريق سيستمر حتى نصبح كلنا رمادا، لأن الحكاية تسير بلا ضابط والقدوة انتقلت من أعلا إلى أسفل والفلوس فى ذاتها أصبحت الغاية والهدف، والفلوس كالنار: خادم مفيد ولكنها سيد ضار، وإذا لم نسارع إلى ايقاف اللهب فلن يبقى منا أحد ليرى النهاية بعينيه، وأى حكومة فى الدنيا لن تستطيع ضبط الأسعار إذا استمر الأمر على هذا المنوال، لأن نار الفلوس تزداد اشتعالاً بسبب ضعف الضمير والوازع، والدولة لا تستطيع السيطرة على الضمائر، فهذه مسألة خاصة بنا نحن، وأجهزة الحكومة أصبحت مثل مواسير المجارى: دايبة ومسدودة ولهذا فلا نطالب الدولة بأن توقف التيار لأنها لن تستطيع ذلك، وماذا تعمل الدولة مع طبيب يريد أن يولد خمس سيدات فى يوم واحد وليس لديه وقت للانتظار حتى تضع كل والدة طفلها وضعًا طبيعيًا، فإذا طالت مدة المخاض أمسك المشرط وفتح فتحة ليسرع بخروج الطفل، وبعضهم

يأخذها من البداية فيلجأ إلى القيصرية، وهذه كلها جنايات على الضمير وعلى ضمير المهنة ولا سلطة هنا إلا للطبيب نفسه.

لقد وصلنا إلى نقطة البداية فى التحول إلى رماد، لأن قطاعات كبيرة من الشعب وصلت إلى نهاية الطريق، فمن المستحيل مثلاً على أى شاب ناشئ أن يجد سكنًا مناسبًا أو غير مناسب، وإذا كان خلو الرجل لأصغر شقة لا يقل عن ثلاثة آلاف جنيه فمن أين له الثلاثة الآلاف؟. ومعظم شباب الأطباء لن يحصلوا على عباة أبدًا، لأن الواحد منهم يحتاج إلى ١٠٠٠٠ جنيه قبل أن يخطو عتبة أى شقة، ولابد له من بضعة ألوف أخرى لفرشها وأعدادها، فمن أين له هذه الألوف؟!. وحتى لو هو عمل حسابه على أن يجمعها فى خمس سنوات فإنها ستكون إذ ذاك خمسين ألفا، والمسألة اليوم سباق محموم، ومهما بلغت سرعتك فى الجرى فأنت لن تسبق النار، فانظر ماذا أنت فاعل والذين ينجبون أولادًا اليوم لابد أن يعرفوا أنهم ينجبونهم للفرن، من بطن الأم إلى النار، وأحسن لهم أن يعذبوا ابنا واحدًا بدلاً من عشرة أبناء.

وأصحابنا فى مكاتب الحكومة يهزون أكتافهم ويقولون لك: إنها موجة عالمية فالأسعار ترتفع فى كل مكان، وارتفاع الأسعار عندنا جزء من ارتفاع الأسعار العالمية.

وتقول له: إننا لن نطالبكم بأن تعالجوا موجة الغلاء لأننا نعرف أنكم لن تستطيعوا ذلك، ولكن ارتفاع الأسعار هناك مهما زاد فهو يتبع منطقًا وحسابًا معروفًا. ثم إن المرتبات أيضًا تزيد لأن الأرباح تزيد. وهناك توازن اقتصادى حسابى، والعامل هناك يزيد أجره ولكن إنتاجه ونوع عمله فى ارتفاع أيضًا، ومن هنا فإن هناك توازنًا بين ارتفاع الأسعار وارتفاع الرواتب وزيادة الإنتاج، أما هنا فإن الاختلال عام وشامل، فإن الناس ترفع الأسعار والأتعاب والأجور اعتسافًا وحسب

المزاج والمطامع، ثم إن ارتفاع دخول بعض الطبقات لا يصاحبه أبدًا تحسن فى الإنتاج أو زيادة فى الدخل العام، لقد قضيت أسبوعًا فى زيادة عمل فى ميلانو فى إيطاليا ولاحظت أن الأسعار ارتفعت فعلاً، ولكن نوع العمل الذى تقدمه دار الطباعة التى أتعامل معها يتحسن، وإنتاج الدار يزيد، ومن هنا فإن الاختلال فى الميزان العام قليل ومحتمل، وقد حسبت حسابى فوجدت أنه رغم ارتفاع أسعار الحياة هناك وزيادة نسبتها على ما عندنا، فإن الحياة هناك أرحم بكثير، والشىء الذى أدهشنى هو أنه رغم ارتفاع كل الأسعار هناك إلى ضعف ما عندنا فإن الإنتاج العام أرخص وأحسن، وإذا كان عندك كتاب تريد أن تطبعه فإنه أرخص لك أن تطبعه فى إيطاليا أو إسبانيا مما لو طبعته فى مصر، مع أن العامل هناك على كل مستويات العمالة يتقاضى أربع مرات أجر العامل المصرى، فهو هناك يتقاضى أجره على أساس ساعة العمل، ولكنه ينتج فى ساعة قدر ما ينتجه العامل المصرى فى أربع ساعات لأن هناك قوانين وتقاليد عمل وشرف مهنة يعرفها العامل وصاحب العمل، ثم إن العامل هناك لا يتلف الآلة التى يعمل عليها، بينما العامل المصرى يحطمها تحطيمًا.. وكل عمل نعمله (نص نص).. إلا التخريب فهذا هو اختصاصنا الذى ننفرد به بين الخلق ونحن نتقنه تماما، وقد كنت أعمل هناك فى الأطلس الإسلامى وسط العمال ثمانى ساعات فى اليوم، فما سمعت مرة حديثًا طويلاً، ولا تنادى بالأسماء، ولا رأيت كوب شاى، كلهم يعملون فى صمت وهدوء، ويعالجون ما بين أيديهم بمحبة، وكل منهم يخصص ربع الساعة الأخيرة من العمل لتنظيف الجهاز الذى يعمل عليه وتغطيته بغطائه..

وسألت نفسى: ما الذى يحدث لنا؟ وما العيب عندنا؟ لماذا نلهث وراء المال ونظل فقراء؟ لماذا يكسب الكثيرون منا المال الكثير ويظلون متسولين؟ لماذا لا نعرف طعم الحياة السعيدة إلا فى النادر؟ والطبيب

الذى يجمع ألف جنيه فى اليوم يرتمى فى فراشه آخر اليوم منهوك القوى، وينهض فى الصباح جهم الوجه بادى الاجهاد، ويجلس أمام عجلة القيادة سيارته ضئيلاً صغيرا كأنه سائق سيارة لا صاحب سيارة؟.

السبب هو أن القلوب متحجرة والعواطف متجمدة، والحب، وهو قوت القلوب غير موجود.. إننا نحب المال دون أن نعرف ماذا نفعل بالمال، لأن أجمل وجوه إنفاق المال هو أن يكون سببًا فى إسعاد الآخرين، بعد أن تأكل أنت وآلك، بعد أن تنال أنت وأولادك كل ما تتوق إليه النفوس، جرب أن تخرج شيئًا من المال لإسعاد طفل مسكين أو يتيم، جرب أنت وأمثالك من القادرين على إصلاح الشارع الذى تسكنون فيه والمحافظة على قطعة الأرض التى تعيشون فيها خضراء نظيفة.. هذا هو ما أعنيه بالحب الذى لا نعرفه، لقد ذهلت مرة وأنا أعمل فى مجلة الهلال من شاب كان يعمل معنا ناداه زميل له ليراجع معه كلام الصور فأبى وقال: ينحرق الهلال وأصحابه! وحكت الكلمة أذنى وقمت مسرعًا لأعتب عليه، ونظرت فى وجهه فإذا هو جامد كالصخر وعيناه زجاج كأعين السمك وفوقهما نظارة عليها تراب، ونظرت إليه ولم أقل شيئًا، فمن مثل هذا الوجه لا تنتظر حبًا ولا تأمل فى عاطفة، والخضرة لا تطلع من الصخور، والجراد لا يصنع الرخاء، والقلب الجامد كهف مظلم يعيش فيه الخفافيش مصاصة الدماء.

لهذا فنحن مسعورون على المال، إننا عاجزون عن أن نعطى، ولهذا ينصرف جهدنا كله فى أن نأخذ، والقلب الذى لا يعرف العطاء لا يعرف السعادة ولا الغنى، والغنى ليس جمع المال، إنما كفاية النفس وسلامة الضمير والإخلاص فى العمل، ولو أن الطبيب أعطى مريضه شيئًا من الحب بدلاً من روشتة طولها متر لشفى المريض، إننى لا أتعجب من أن المريض المصرى لا يكتفى بطبيب واحد أبدا، إنه يحس أن الطبيب الذى يعالجه لا يشعر نحوه بأى محبة، والعلاقة

بينه وبينه علاقة مال، والمريض يعطى المال والطبيب يعطى الوصفة، فلا المال ينفع ولا الوصفة تنفع المريض.

والمدرس المصرى غير ناجح لأنه لا يحب التلميذ ولا التدريس، والمدرسة سجن مفتوح الأبواب، لأن كل الذين يعيشون فيها لا يعرفون الحب، المدرس سجان، والناظر مأمور سجن، والتلميذ سجين ولا محبة بين إنسان وإنسان.

والمصرى الذى عانى الفقر مئات السنين يظن أن سعادته فى أن يصل إلى المال الكثير بأسرع ما يستطيع.

والمصرى الذى حرموه من عزة النفس مئات السنين يظن أنه يدرك الكرامة والحرية بالتمرد على كل القوانين حتى قوانين الأدب واللياقة والنظافة واحترام حريات الآخرين، وبداية حفل الزواج عندنا إقلاق راحة الآخرين، وسعادتنا لا تتم إلا بعذاب الناس.

والمصرى الذى حرموه السعادة مئات السنين يظن أنه يدرك السعادة إذا هو سكن شقة أرضيتها مغطاة بالموكيت وفوق الموكيت أثاث غالى الثمن وتليفزيون واستريو وفيديو وثلاجة ٥٠ قدمًا وسيارة على الباب فيها تليفون.

لا أيها الأخوة والأعزاء.

إننا نشعر بالغنى الحقيقى إذا أحببنا بلدنا هذا ورعيناه.

إننا نشعر بالسعادة الحقة إذا نحن أعطينا قبل أن نأخذ، إذا نحن فكرنا فى الآخرين كما نفكر فى أنفسنا، لأن المال وحده لا يغنى الإنسان، والعلم وحده لا يصنع العالم، والمهارة وحدها لا تصنع الفنان، وقد رأى رسول ﷺ رجلاً يغرس نخلة، رآه يحفر لها بئر وينخل التراب قبل أن يضعه فى البئر، ويمسك بالفسيل فى محبة ويضعه فى

التراب ويرويه بماء قليل ويتحسسه بيده ليطمئن عليه، ثم يغطيه بثوب قديم مخافة برد الليل، فيضع الرسول الكريم يده على رأسه ويقول: هذه يد يبارك الله ما تصنع.

تحسب أيها العزيز أنك تغنى ومن حولك فقراء؟.

تحسب أنك تستطيع أن تغنى من نهب أموال الآخرين؟.

وتكذبك نفسك والله!.

فإننا لا تغنى أبدًا ووطننا فقير، وأنت لن تشبع أبدًا ومائدتك عليها الطعام أشكالاً وألوانًا لأن وراء بابك مئات من إخوانك المصريين جياع.

إننا أيها الأخوة لن نسعد ومصر تعيسة، ولن نقوى ومصر ضعيفة، ولن نعرف الضحك ومصر باكية.

ومصر أيها الاخوة اليوم حزينة باكية لأنها أرمل تخلى عنها الجميع، لقد اشتركنا جميعا فى نهبها، والجنيه المصرى رمز مصر نجمعه وندسه فى أفواه الخنازير لنحصل على بضائع هى أسوأ من لحم الخنزير.

وهذه اللهفة على المال لن تجعلنا أغنياء لأن الغنى غنى النفس والشبع شبع الروح، لهذا فإن الذين نسميهم اليوم أغنياء هم أتعس الفقراء، وهذه اللهفة على المال حمى ستمتد وتمتد حتى نصير كلنا رمادا.

إننا قافلة ضلت الطريق.

واليوم ووسط صحراء قاحلة وتحت شمس محرقة نقف ورمال تحيطنا إلى مقطع الأفق فى كل اتجاه، وعند مقطع الأفق لن نجد إلا ثلوج الموت!.

(١٢)

نحن نأكل لحم أخينا ميتا وحيا*!

فى تفكيرى الدائم فى أمر شعبنا - العزيز والمحير - هذا أقول لنفسى أحيانا: لابد أن زلزالاً عنيفًا قد مر بنا وهز كياننا هزًا شديدًا، فتغير طبعنا، واضطرب مزاجنا، ففقدنا الكثير من قيمنا ومقومات شخصيتنا، ودخلنا - نتيجة لذلك - فى دور جديد من تاريخنا، لم نعد نعرف فيه من نحن؟ أو ماذا نريد؟. واضطرب ميزان القيم والأشياء فى أيدينا واضطرابًا بالغًا، فما كنا ننكره بالأمس أصبحنا اليوم نقبله، وما كنا نراه عيبًا لم يعد عيبًا، حتى أرضنا التى هى قوام حياتنا وسر وجودنا أصبحنا اليوم نبددها فى غير مبالاة.

والفلاح المصرى الذى كان على طول التاريخ رمز الأرض الخضراء والزرع البديع والرخاء الذى كانت تحسدنا عليه الأمم لم يعد اليوم فلاحًا أو زارعًا، بل إن أرضه لم تعد خضراء، فقد جرفها أو تركها بورًا لكى يحولها إلى أرض مبان يبيعها بالمتر، وترك الحقل ومضى ليأخذ مكانه فى طابور الجمعية ليحصل على طعام مستورد زرعه فلاح آخر فى البرازيل أو أستراليا أو كندا وربما فى الأرجنتين، ومع تراجع الخضرة وتغير لون الريف المصرى تغيرت نفس الفلاح المصرى، فلم تعد خضراء أو مفرحة، وأخذت لونًا جديدًا رماديًا كابيًا هو جزء من ذلك اللون الرمادى العام الغالب على حياتنا اليوم..

وقد يكون الذى حدث هو العكس أى أن هذا الشعب كان ينبغى أن يعانى زلزالاً عنيفًا يخرجه من الركود الذى يعانيه منذ الأربعينات أو الثلاثينات من هذا القرن، وأنه لمن الغريب جدًا أن الحرب العالمية الثانية، التى اجتاحت هذا الكوكب وغيرت من أحوال كل شعب فيه، مرت بنا نحن وكأننا نعيش فى كوكب آخر. فبينما كانت أوروبا غارقة

---

* نشرت هذه المقالة فى أكتوبر ١٩٨٤م.

فى الصراع والدماء والبارود والنار، والولايات المتحدة كلها مشتغلة بالحرب تعمل جاهدة للقضاء على النازيين والفاشيين، وبينما كانت الصين تدافع عن كيانها أمام غزو ياباني شامل اكتسح معه نحو عشرين مليون صيني، واحترقت فيه الصين القديمة لتولد صين جديدة، وبينما كانت روسيا تتحول فى نيران الحرب إلى هذا المارد العسكرى العلمى الذى يخيف الدنيا كلها اليوم، كنا نحن نمرح ونلعب، فالملك والإنجليز والباشوات فى لعبة الوزارات المملة، والأموال تنصب فى جيوب الألوف دون تعب أو حساب، وفى بارات عماد الدين وما حوله. وفى كباريهات داعرة كان يجلس باشوات وأنصاف باشوات وخواجات ويهود، ومن هنا يحركون بورصة الأوراق المالية فى القاهرة أو الإسكندرية، ويربحون مئات الألوف، حتى العيال من أولادهم تعلموا اللعبة، وتحولوا إلى «كروبيه» يمدون العصا الطويلة ذات الجاروف ليحوزوا ما ألقته إليهم به كرة الروليت، وفى أوكار أخرى جلس المعلمون سادة تجارة المسروقات من «الأورنص» (الأوروينانس أى مخازن التموين والبضائع الخاصة بالجيش الإنجليزى، ومازالت فى أذهاننا إلى اليوم صورة «غنى الحرب» ذلك الرجل الجلف الذى يكسف الألوف وينفق فى غير حساب. وكل حياته حرام فى حرام ولا وجود عنده لوطن أو ضمير.

وعندما أشرفت الحرب على نهايتها أعلنا الحرب على ألمانيا وإيطاليا!. وألمانيا التى أعلنا عليها الحرب لم تحس، لأنها كانت فى سياق الموت، ونحن لم نعلنها عندما كانت الحرب دائرة فى صحرائنا الغربية وجيوش المتحاربين تكر وتفر على أرض بلدنا وفى موضع غير بعيد من مرسى مطروح دارت رحى معركة حاسمة يملأ صيتها الدنيا هى العلمين. وكنا نقرأ أخبار ما يجرى فى العلمين، وكأنها ليست جزءا من أرض مصر بل منا من كان يتندر بتلك الحرب ولا يفكر فى أمرها لحظة، وانتظرنا نحن حتى مرت معارك سيدى برانى وسيدى جوانى وطبرق والعلمين، حتى إذا انتهت الحرب من الشمال الأفريقى كله ومن إيطاليا كلها وأصبحت هناك داخل ألمانيا، أعلنا الحرب على ألمانيا.

كل هذه الأحداث الهائلة مرت بنا وكأننا نيام، وانتهت الحرب وانتهى معها العالم ما قبل الحرب، ودخلت الدنيا كلها عالم ما بعد الحرب، ونحن مازلنا نتلكأ فى المؤخرة وكأننا لسنا فى هذه الدنيا، وعندما رأينا قافلة الإنسانية تبتعد عنا وتكاد مؤخرتها تختفى عن الأنظار مضينا نهرول على أمل اللحاق بها، وهيهات! أليس هذا هو حالنا اليوم؟ ألسنا نهرول ونلهث وراء القطار الذى فاتنا ولا نكاد ندركه؟

إننا ندخل اليوم عصر الكومبيوتر، ونحاول أن نعيش فيه، ولكننا نحس فى كل لحظة إحساس الريفى الساذج الذى دخل المعرض الكبير وتجول فيه وخرج من الباب الآخر يحمل فى يده نشرات وإعلانات وكراسات دعاية ملونة، أخذ يتأملها فلم يَفهم مما فيها شيئًا، فألقى بها فى الطريق، وهذه هى حالة تسعين فى المائة من الأجهزة الإلكترونية فى بلادنا، نشتريها اليوم لتتحول إلى خردة غدا، فنحن نشتريها ولا نعرف كيف نستخدمها أو كيف نصونها، والجهاز الذى يتعطل لا يصلح أبدًا، لأن العلة ليست فيه بل فينا. ونحن نعيش وراء عصر الكومبيوتر بقرون.

وفى حيرتنا البالغة – بسبب الزلزال الذى أصابنا أو الزلزال الذى كان ينبغى أن يصيبنا ولم يصبنا نقف اليوم فى وسط سوق الدنيا وكأننا الأصم فى الزفة، والحل الوحيد الذى خطر ببال معظمنا أن المال ربما كان طوق النجاة الذى نحتاج إليه، واجتاحتنا كلنا حمى المال، وميزان الأسعار والأجور والإيجارات اضطرب اضطرابًا شديدًا، والشىء الذى يساوى جنيها أصبح يباع أحيانًا بعشرة أو عشرين، والعامل الذى يدق لك مسمارًا يطالبك بعشرة جنيهات لا لأن العمل الذى عمله يساوى هذا المبلغ، بل لأنه هو نفسه لا يعرف الفرق بين العشرة الجنيهات والعشرين، والطبيب الذى ينظر فى عيادته فيراها مكتظة بمعلمين فى

جيب كل منهم محفظة كأنها وسادة يجد أنه من حقه أن يرفع أجره من خمسة جنيهات إلى عشرة إلى عشرين وربما ثلاثين، لأن كل واحد من أولئك المعلمين لن يرحمه إذا هو ذهب يشترى منه شيئًا. ومن أيام وجدت أن سعر كيلو اللحم بلغ سبعة جنيهات ونصف. ونحن أصحاب القلم مساكين جدًا فى هذا السباق القاسى نحو المال، فإن أتعابنا لا تزيد إلا بالقطارة، وليس أمامى فى هذه الحالة إلا أن أخفض استهلاكى من اللحم، وبدلاً من ستة كيلوجرامات فى الشهر أكتفى بثلاثة، لكى أستطيع تحقيق شىء من التوازن بين الوارد والمنصرف، بينما جارى الذى يسكن الدور فوقى يرتبط على بابه ثلاث سيارات غالية الثمن وواحدة منها بالتليفون، ويغير عفش بيته مرة كل عامين على الأكثر، أما الحمامات فهو يبدلها كما نبدل نحن الجوارب أو المناديل، والحصول على المال لا يكلف هؤلاء الناس إلا توسيع الذمة بعض الشىء حسب الحجة، والأزمة عندهم ذات قلاووظ: هكذا تتسع وهكذا تضيق!

ومهما اختلفنا حول الأسباب والعوامل، فإن المؤكد هو أن ميزان القيم يضطرب فى أيدينا الآن اضطرابًا شديدًا، ولا يقتصر الأمر على الأشياء المادية، بل هو يشمل - وبصورة أفدح - القيم المعنوية ومفهوماتها مثل الحق والواجب والقانون والضمير والذمة وما يصح، كل هذه قد اختلت موازينها اختلالاً مخيفًا، وتبعًا لذلك تغيرت طبائع الناس وسلوكياتهم تغيرًا بالغًا، وأصبحنا نشهد من الناس حولنا تصرفات لا تصدق، وأنا أتعزى فأزعم لنفسى أن ذلك كله طارئ مؤقت لأنه يخالف طبائعنا وخصائصنا، وان لسان الميزان لن يلبث أن يعتدل من جديد، فيعود كل مصرى إلى طبعه الأصيل الكريم الذى نعرفه فيه ويشفى شعبنا من سعار المال الذى استولى عليه، فيعود الفلاح المصرى فلاحًا طيبًا يرعى أرضه وأرضنا، كما فعل من آلاف السنين، والصانع المصرى يعود إلى قناعته ونمته وضميره وإتقانه لعمله، كما عرفناه من أيام أجدادنا القدماء الذين

اخترعوا الحرف والصنائع والإتقان، ويعود المهندس المصرى مهندسًا رصينًا معافى من حمى المال التى جعلته يرتكب تلك الكوارث المهنية التى يرتكبها اليوم عن نقص العلم أحيانًا، ونقص الضمير أحيانًا أكثر، والمهندس المصرى القديم لايزال يبهر الدنيا بمنشآته دون أسمنت مسلح، فى حين أن حفيده يذهب الدنيا بتفاهات ما يبنى رغم الحديد والأسمنت المسلح..

والطبيب المصرى ينظر أولاً إلى علاج مريضه دون لهفة على المال أو سباق نحوه، ويعود كل شىء إلى نصابه، لأن الحقيقة أن كل ما نحن فيه وما يحيط بنا غير طبيعى، فنحن قطعا نستطيع أن نطعم أنفسنا بنفسنا ومن أرضنا دون حاجة إلى تسول القمح والدقيق واللحم بتلك الطريقة غير الكريمة التى نفرق فيها اليوم، ويومها سنرى الأشياء على حقيقتها، ونستطيع علاجها بعقل وحكمة وروية، ولو أنك اقترحت ا ليوم على مجلس الشعب إلغاء دعم السكر مثلاً لقامت القيامة مع أن إلغاء دعم السكر مثلاً لقامت القيامة مع أن إلغاء دعم السكر نعمة على الفقير والغنى جميعا، فليس هناك شىء أضر بالصحة من السكر الأبيض الذى ننفق الملايين فى شرائه من أسواق العالم لنبيعه بالثمن الرخيص لجمهورنا، ونحن نعلم أننا نبيع لهم السم، ويومها أيضًا سنرى أن دعم السيجارة جريمة، وأن بيع لتر البنزين بخمسة عشر قرشا جريمة أكبر لأننا ينبغى أن نبيعه لمن يريد أن يقتنى سيارة بسعر قريب من السعر العالمى، وقد كنت فى إسبانيا من أسبوعين فوجدتهم يبيعون لتر البنزين بستة وتسعين بيزيتا أى بنحو سبعين قرشا، ومن يريد أن يركب سيارة فليتحمل تكاليفها ومن لديه سيارة فليقتصد فى استعمالها..

□□□

أقول هذا لأن حمى المال التى تستولى علينا لا تحرق أموالنا فحسب، بل أخلاقنا كذلك، وفى الصيف الماضى دعانا صديق إلى مأدبة سمك فى

أبى قير، وفى أثناء الحديث وقبل الذهاب عرفت أن الوجبة الواحدة تتكلف حوالى عشرين جنيها، فرفضت أن أذهب لأننى إذا قبلت أن أدفع هذا المبلغ أو يدفعه صديق عنى، فإن ذلك سيكون له أثر سيئ جدًا فى نفسى، وهل العشرون جنيها قليلة حتى أنفقها فى أكلة سمك؟. وإذا هانت علىّ العشرون جنيها، فلابد أن تهون على نفسى أشياء أخرى كثيرة جدًا، وأهم من السمك بكثير، وسأصبح مثل ذلك الرجل البلدى أقبل مع أسرته ذات يوم ونحن جلوس فى حديقة المنتزه فى الإسكندرية، وجلسوا على الخضرة إلى جوارى وبسطوا ملاءة وأخرجوا طعامًا كثيرًا كله سمك وأقبلوا يلتهمونه، الرجل يقول إنه أنفق فى هذا السمك أربعين جنيها! وأكلوا ما أكلوا ثم نفضوا الملاءة وتركوا المكان مزبلة وقالت لى زوجتى:

– أليست هذه جريمة؟

قلت: بلى إن ترك هذه المخلفات على هذه الصورة جريمة، ولكن الجريمة الأكبر هى أن ينفق هذا الرجل أربعين جنيها فى أكلة واحدة، لأن المال لابد قد وصل إلى يده بمثل السهولة التى أنفقه بها.. وهذا هو اختلال الموازين بعينه، وأنا لا أستغرب أن يطلق هذا الرجل امرأته ويتزوج أخرى مساء اليوم، ويلقى بها وبعيالها فى الطريق لأن ميزانه الأخلاقى لابد أن يكون مضطربًا مثل ميزان الأسعار فى يده..

ونهضت أبحث عن أحد البستانيين وأعطيته جنيهين لكى يرفع هذه البقايا، وسألته إن كان يستطيع أن يأتى بشىء من المبيدات ويرشها فى هذا الموضع، فاستجاب وتقاضى جنيها آخر وشكرته وقلت:

– بدون هذا لن تكون لدينا من الغد حديقة نجلس فيها..

□□□

لكى أعطيك مثالاً عن مدى اضطراب ميزان القيم عندنا اليوم أحكى لك الحكايتين التاليتين..

من نحو ثلاثين سنة كنا نقطن فى شقة فى شارع جنينة ناميش فى السيدة زينب، وكان يسكن أمامنا رجل وامرأته، وكان الرجل مريضًا منقطعًا عن العمل، وكانت امرأته تقوم على تمريضه، ولم يكن لديهم أولاد، ولا أذكر أن أسبوعًا مضى دون أن يزور ذلك المريض أحد أخوته أو إحدى أخواته.. كلهم يحملون المال أو الطعام، وتوفى الرجل، فأقبل بعد أيام أخوان للمتوفى، وقالوا للسيدة: أنت تظلين فى بيتك على حالك، ولن ينقصك شىء، ونحن أشقاؤه، ورعايتك تلزمنا، لأنك كنت له خير زوجة فى الصحة والمرض، وقد اجتمعنا نحن الأخوة واتفقنا على أن نقدم لك كل شهر خمسة عشرة جنيها، فيظل بيتك مفتوحًا، ولا يتغير فى بيت أخينا شىء، مادمنا على قيد الحياة!

وأذكر أن شيئًا ما لم يتغير على هذه الأرملة ظل بيتها مفتوحًا، وظل إخوة زوجها ونساؤهم يترددون عليها، كما كان الحال فى الماضى، وهذا بلا شك هو الخلق المصرى، كما أعرفه وكما ينبغى أن يكون عندما يكون ميزان القيم معتدلاً فى أيدينا.

فاسمع إذن يا سيدى ماذا حدث من قرابة الشهرين..

توفى رجل طبيب نعرفه بعد مرض طاوله ثمانى سنوات أجرى خلالها عمليتين جراحيتين فى مصر وثالثة فى إنجلترا، فقد كان الرجل ميسور الحال وكان حاله كحال الآخر الذى حكيت لك حكايته أى أنه لم ينجب..

ويقصّ على ما حدث بعد موته أخو زوجته الحاج سيد ويقول:

خلال سنوات المرض والعمليات لم يزرنا واحد من إخوته أو أولاد أخوته حتى نسينا أن له أخوة أو أقارب. والرجل كان يقيم فى شقة جميلة حسنة التأثيث فى بيت من أربعة طوابق فى العباسية..

وتوفى نسيبى ووارياه التراب..

وبعد ظهر اليوم التالى وأختى تعانى أوصاب الحزن، فقد كانت تحب زوجها حبا وكان الرجل جديرا بذلك الحب وتبكيه ملء عينيها، فقد كان الرجل بالفعل أهلا لكل حب، بينما أختى فى هذه الحال وحدها فى بيتها، طرق الباب وقامت تفتح فإذا إخوته الثلاثة وأختان له ومعهم أربعة من أولادهم يقتحمون الباب، ويدخلون متظاهرين بالحزن ويجلسون، وبعد عبارات التعازى يقول كبيرهم.

□□□

– والله يا أنصاف هانم أنت لا تتصورين حزننا على أخينا، فقد كان المرحوم كبيرنا وعميد أسرتنا، ولم نكن نكف عن التفكير فيه والأسى لحاله لحظة.

فيكم الخير..

وبعد لحظة صمت عاد يقول.. ولكنك تعرفين الأحوال يا أنصاف وأخونا رحمة الله عليه مضى إلى حاله غير مخلف ولدًا وبنتًا، ونحن نعرف أن هذه الشقة ملكه، ونحن لن نطالبك بإخلائها – وهذا من حقنا – ولكننا مراعاة لحرمة أخينا مستعدون لأن نسمح لك بالإقامة فى غرفة من غرفها تختارينها كما تشائين، وسنتنازل لك من المال الذى ترك نصيبًا يغطى حاجاتك شهرين ثلاثة حتى تدبرى أمرك، ونحن ناس معقولون ولا نريد الدخول فى مشاكل أو محاكم، ونحن نعرف أنك سيدة مفردة، ولن تستطيعى شيئًا حبالنا، ولكننا كما قلت لك نراعى حرمة أخينا وما كان بيننا وبينك من صهر.

والسيدة – بعد صبر ثمانى سنوات مع رجل مريض – كان قد صلب عودها واكتسبت رجاحة عقل تدعو إلى الإعجاب، ولاشك فى أنها كانت تنتظر زيارة أولئك الأقارب، ولكن ليست بهذه السرعة، ولا بتلك

الصورة البالغة الجفاء التى تشبه الغزو، فظلت صامتة تنظر فى وجه محدثها فاستمر يقول:

– ونحن لا نعرف طبعًا كم عند أخينا – عليه رحمة الله – من المال ولا مقدار ما عندك من المصاغ، ولكننا نرجو أن تطلعينا على ذلك كله بالأمانة حتى يأخذ كل منا نصيبه بما يرضى الله:

وسواء صارحتنا أم لم تصارحينا فإننا سنعرف كل شىء وسنأخذ حقوقنا على دائر المليم، ومن باب الاحتياط أرسلت ابنى إسماعيل لينبه على الجراج بضرورة التحفظ على سيارة أخينا حتى يتم الاتفاق بيننا وبينك بشأنها، وسنكلف محامينا بمعرفة ما خلفه المرحوم من أموال فى البنوك، ونحن نعرف أنه كثير جدًا، واستمرت السيدة فى صمتها، ويقول الرجل:

– ماذا قلت يا ست إنصاف؟ هذه مسائل لا تحتمل التأخير، ونحن كما قلت لك ناس مسالمون لا نريد مشاعب أو قضايا ومحاكم وابنى عبد الرحمن. خاطب من سنة قد جاءه الفرج ليدخل على عروسه فى شقة عمه!

قالت السيدة: فى أى لحظة سيأتى أخى الحاج سيد، ويكون كلامنا بحضرته.

ويقول أخ آخر: سيد كيلانى.

وتقول السيدة: سيد كيلانى المهندس المقاول.

– وما دخله؟ وهل تظنين أن كونه مهندسا مقاولاً سيخيفنا؟

صبركم بالله! أما قلتم إنكم تريدون أن نصفى كل شىء فى هدوء وسلام؟

– بلى.. ولكن لنفترض أن السيد الحاج سيد كيلانى – ولا مؤاخذة – لم يأت فماذا نصنع؟

على الأقل اختارى من الآن حجرتك لكى نتصرف فى الباقى.

واندفع كل من الأخوة والأخوات يقول ما تيسر وهاصت الدنيا، وأخيرا وصل الحاج سيد وكان قد استأجر الدور الأرضى فى البيت وأسكن فيه ابنين له يدرسان فى جامعة عين شمس دخل وحيا الجيش الفاتح الجالس على المقاعد، ثم قال:

– خيرًا إن شاء الله.

وأعادوا عليه الكلام فى أسلوب أكثر تأدبًا لأن الحاج سيد رجل موسر صاحب مكتب هندسة ومصانع بلاط وأدوات صحية. فاستمع إليهم ثم قال بكل هدوء:

– الآن فقط ذكرتم أن لكم أخا!

– يا سيد بك ندخل فى الموضوع، ولا حاجة بنا إلى هذا التقطيم.

– ولم لا أيها السادة، إننا هنا فى بيتنا نتكلم فى هدوء وسنتفق إن شاء الله على كل شىء، ولكن أحب أن أذكركم بأن الله سبحانه وتعالى قال: إن المؤمن يكره أن يأكل لحم أخيه ميتًا وأراكم تريدون أكله ميتًا وحيًا!

– يا حاج سيد لا داعى لهذا الكلام لندخل فى الموضوع.

– نحن فى صميم الموضوع فليس هناك أيها السادة ما يقسم. فإن المرحوم كان يتوقع أن يحدث هذا بعد وفاته وكان قد باع لأختى أنصاف كل ما عنده من خمس سنوات. باعه لينفق على علاج نفسه وأختى كان عندها مال كما تعلمون فاشترت كل مال زوجها وأعنتها أنا على ذلك بما تيسر لى، والمرحوم كان يملك هذه الشقة فحسب، فاشترت أختى البيت كله، الأدوار الأربعة وهى التى اشترت سيارة المرحوم الباقية إلى اليوم، والتى تريدون الحجز عليها كل ذلك ملك أنصاف من

سنة ١٩٧٦م وصدقوا أيها السادة أو لا تصدقوا: لقد أنفقت كل مليم كان عندها أو عند زوجها على علاج زوجها - أخيكم رحمة الله عليه - كان رجلاً يوزن بالذهب، بل هى تعلمت التمريض لكى توفر أجر المرض والحقن، والمرحوم كان مريضًا بالسكر، بل هى باعت أربعة فدادين من أرضها لإجراء العملية الأخيرة فى لندن.. كل ذلك وأنتم لا تسألون عن أخيكم..

- لا نصدق حرفاً من هذا الكلام.

- كنت أتوقع ذلك!

ثم نظر إلى ابنه عزت وهو طالب فى طب عين شمس، وقال له: هات يا عزت نسختين مصورتين من الملف وأتى عزت بملفين مصورين كل واحد منها يقع فى نحو مائة ورقة مصورة فيها صور عقد البيع والشراء المسجلة كلها فى الشهر العقارى مع طائفة من كشوف حسابات العمليات الكبرى وقال:

- هذه الصور أعددناها بأمر المرحوم لأنه كان يتوقع منكم.. هاتان نسختان تستطيعان دراستهما مع محاميكم إن كان لكم محام.. وسترون فى النهاية أنه ليس لكم معنا كلام.. حذار أن تتصرفوا أبسط تصرف إلا بعد أن تقرءوا هذه الأوراق كلها، لتروا ماذا فعلنا لأخيكم الذى تأتون الآن لتتقاسموا ميراثه، وتطردوا أرملته من بيتها، وتتحفظوا على سيارته، والآن أظن أن من حق أختى أن ترجوكم أن تتفضلوا غير مطرودين، لأننا محزونون على الفقيد لقد حفظنا لحمه حيًا وميتًا عليه ألف رحمة من الله، فقد كان زينة الرجال.

وقاموا دون أن ينبسوا وعندما كانوا بالباب وكبيرهم يحمل الملفين تحت إبطه كأنهما خفًا حنين، قال: هذه الأوراق ستقرؤها مع المحامى ورقة ورقة، ولن نتنازل عن مليم لنا فيه حق، وهذا ليس آخر لقاء

obeikandi.com

بيننا.. وأظن يا حاج سيد أنك لا تكره الحق.. ونحن لنا أولاد والحى أبقى من الميت!

وتقول أنصاف هانم:

– غلط يا توفيق بك، الآن فقط أرى أن ميتًا واحدًا أبقى من ألف حى! من قال إن الحى أبقى من الميت؟ مع السلامة.

obeikandl.com

(١٣)

أنت وأبو فصادة وفلسفة الحياة*

أبو فصادة عصفور مصرى دقيق الجرم أنيق الهيئة خفيف الظل لا تراه إلا فى الحقول والحدائق وهو إذا طار ارتفع وأعلى فى الجو حتى لا تراه للطافة حجمه، وله فى طيرانه خصلة فريدة هى أنه يتموج فى طيرانه، فيعلو ثم يهبط ثم يعلو كأنه بهذه الطريقة يخادع كبار الطيور ممن يحلو لهم العدوان على صغار الطير، ولكن أظهر خصائصه التى يمتاز بها على الطير كله هى أنك لا تراه إلا رافع الرأس والذيل أبدًا، وذيله على الخصوص يقوم مستقيمًا شاخصًا إلى السماء كالعمود، وهو إذا طار نشره كأنه مظلة تحفظ توازنه فى الجو، فإذا حط على الغصن أو الفنن رفعه إلى السماء قائمًا، فقيل له مرة: أرفق بنفسك يا أبا فصادة، ولا تحملها عناء رفع الذيل هكذا دائما أبداً! فقال أبو فصادة: أخفض ذيلى؟ إذن تقع السماء على الأرض!

فهذا الطائر اللطيف يتصور أن ذيله المرفوع هو الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض، فهو إذن ليس مجرد طائر لطيف إنه مخلوق صاحب رسالة، وعصفور له مهمة كبرى فى الخلق، إنه يحمل السماء ولولا ذيله المرفوع لوقعت السماء على الأرض وكانت كارثة، ولهذا فأنت لا تراه يمشى على الأرض إلا نادراً، إنه دائمًا فوق فنن رفيع، وذيله مرفوع خطًا مستقيمًا ورأسه، لا ينخفض إلا ريثما يلتقط الحبة فينقض عليها ويحملها فى منقاره ويسبح فى ملكوت الله وهو فى طيرانه يتأمل الخُلق من تحته، لأنه ليس مجرد عصفور من العصافير يسعى لرزقه ويمشى على الأرض وينبش القمامة سعيًا وراء رزقه كما تفعل القُبَرَّة بضم القاف وفتح الباء مع تشديدها وهى العصفور الرمادى الصغير الذى يملأ الجو فى كل بلاد الدنيا فلا تتلفت إلا رأيته.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢ يونيو ١٩٨٥م.

وهذا هو الذى يعجبنى فى أبى فصادة، وفى كل مرة أجد نفسى فى حقل أو روض دارت عينى تبحث عنه، وأنا دائمًا أبحث عنه فى ذرا الأشجار لأنه عصفور له كبرياء وعزة نفس، فإن له رسالة كبرى لا يتخلى عنها أبدًا، وأذكر أننى قرأت ذات مرة كتابًا من نوادر ما ألف فى مصر بالإنجليزية يسمى «الطيور المصرية» ألفه فيما أذكر واحد من الإنجليز القلائل الذين أحبوا هذا البلد وخدموه اسمه تشارلس جارفيس، كان فى يوم من الأيام حاكم سيناء، وله كتاب مشهور عن سيناء، وأظن أنه تحدث فيه عن طابا وقرر دخولها فى الوطن المصرى من قديم الزمان وبرأيه أخذ اللورد كرومر عندما تصدى لوالى الدولة العثمانية على بلاد الشام وأراد العدوان على أرض مصر زاعمًا أنها كلها أرض عثمانية فرفض تشارلس جارفيس هذا الرأى وقال: إن أملاك الدولة العثمانية تنتهى شرقى سيناء، وأن خط الحدود يمتد من رفح إلى رأس النقب شرقى طابا، وجدير بالذكر أن الأطلس المصرى العام الوحيد الذى خصص خريطة قائمة بذاتها لسيناء، وعين فيها موقع طابا داخل حدود مصر بوضوح، هو الأطلس الذى عمله الدكتور صبحى عبد الحكيم وحرمه السيدة الأستاذة إجلال السباعى، وفى الصفحة الحادية والعشرين منه ترى خريطة سيناء وفيها بير طابة داخل حدود مصر، ولا غرابة فى ذلك فصبحى عبد الحكيم هو منشئ مدرسة الخرائط فى قسم الجغرافية بجامعة القاهرة.

وأعود إلى صاحبى أبى فصادة فأقول إن اعتزازه بنفسه يجعله يتخير لعشه أعلى ذروة من ذرا الشجر وقد صوروه فى عشه مع أليفته وقالوا إنه من أحرص الطير على عشه وبيضه وأولاده وإن أليفته إذا رقدت على البيض، اتخذ هو مكانه على غصن فوق العش ليحمى أسرته فإذا أحبت أليفته أن تطير لتأكل شيئًا، حط هو واتخذ مكانه على البيض ريثما تعود امرأته، وهو إذا حط فوق البيض ولم ينم قط وإنما هو يقظ أبدًا يتلفت فى كل اتجاه لأنه مخلوق يقظ القلب، فهو صاحب رسالة

وذيله الشاخص إلى السماء يؤكد لك يقظته وعزة نفسه وشعوره بدوره فى الوجود.

وأبو فصادة سعيد لأنه مخلوق له رسالة رفيعة يشعر بها، وعندما أتأمل الناس من حولى أجد فيهم الكثيرين جدًا ممن يجمعون المال الوفير، ولكنهم مع هذا غير سعداء لأنهم طلاب مال يكدسونه لا أصحاب رسالة فى الحياة يقومون بها، ولو كانت لهم رسالات لأحسوا بطعم السعادة ومن بين من عرفت من الأطباء طبيب رمدى مصرى لا تنظر فى عينيه إلا قرأت السعادة، وسر سعادته أنه طبيب له رسالة، ورسالته هى المحافظة للناس على نور العيون، وهو لا يسمع عن جهاز رمدى جديد إلا سافر إليه ودرسه واشتراه لينفع به مرضاه إذا رأى أن فيه خيرًا، وإلى جانبه أذكر طبيبة مصرية تعمل فى العلاج الطبيعى، وقد ملأت عيادتها بأجهزة زخرفية لا غرض لها إلا جمع المال، وعيادتها سبع غرف كل منها تؤتيها فى اليوم بمائة جنيه على الأقل، فهذه سبعمائة جنيه فى اليوم، ومع ذلك فهذه الدكتورة أبعد ما تكون عن السعادة فقلبها مثقل بالهموم وبيتها طافح بالخصام، وزوجها مبغض لها لا يراها إلا انقبض قلبه، ووجهها ملون منقوش، ورأسها مصبوغ بلون الذهب، ولكنها غير جميلة، ووجهها يحدثك بهمٍّ ثقيل، لأن المال لا يصنع السعادة، والصباغ لا يصنع الجمال، وكلما زاد صباغ وجه المرأة كان هذا أدل على خواء قلبها من الحب، وفراغ حياتها من السعادة والأمان والرخاء.

ومن بين الحيوان البرى دب صغير طريف الهيئة يسمى الباندا ملون (أبيض أسود) أو (بنى أسود) ومن طرائف خلقته أن أذنيه سوداوان ووجهه أبيض فيما عدا ما حول عينيه، فهناك دائرتان سوداوان أو بنيتان حول العينين تجعلان لهذا الدب الصغير شكل اللعبة، وهو بالفعل لعبة.. لعبة صينية إذ أنه لا يوجد بريًا إلا فى بعض جبال

الصين ومن مزايا الباندا أنه مترفع عن الخلق لا يكاد يحفل لمخلوق، وهو يعيش فى عاله الموحش زاهدًا فى كل شىء بما فى ذلك الطعام والجنس، ويزعم الناس أنه أكسل مخلوقات الله، وأنه لكسله سينقرض لزهده فى الجنس، وأنت إذا رأيته فى حديقة الحيوان تعجبت من أمره فبينما تجد غيره من الحيوان يقبل على الناس ويتسول منهم الطعام كما نجد فى حالة قرود البابون وهى متسولة فعلاً، ولهذا فقد هان أمرها على أنفسها وعلى الناس والمخلوقات، أما الباندا فلا يفعل هذا قط بل يستلقى على ظهره ويجعل قدميه فى وجوه الناس زهدًا فيهم وترفعًا عليهم، وبسبب هذا الترفع عن الخلق تجد الناس أشد إقبالاً عليه منهم على غيره من الحيوان، وفى حديقة حيوانات لندن يعتبرون الباندا نجم الحديقة، والناس متزاحمون حوله أبدًا، والأطفال خاصة يفتنون به وحكومة الصين إذا أرادت أن تعبر عن مودتها لأمة من الأمم أهدتها زوجًا من الباندا، ونظرًا لزهد الباندا فى الجنس فهو يكاد ينقرض، وحكومة الصين قررت التوقف فى إهدائه حتى يتكاثر فى جباله، فقد عرف الناس أن زهد الباندا فى الحياة والبقاء ناتج عن نفوره من الجنس فى الأقفاص، فهو فى جباله بخير من مئات الألوف من السنين، إنه يعيش مع الحرية ويموت مع فقدانها ولو أطعموه أحب الطعام إليه، إنه مخلوق يتمسك بحقه فى الحرية، إنه لا يقبل على الحياة إلا إذا كان حرًا، وزهده فى الحياة مع الأسر تعبير عن تمسكه بحقه فى حريته ورفضه أن يكون لعبة أو فرجة، وهو من هنا يشبه أبا فصادة وكلاهما يذكرنى برجل من الخوارج اشتهر بالبسالة وقول الشعر الحماسى الجميل، وكان يستبسل فى حرب جيوش الحجاج بن يوسف الثقفى دفاعًا عما يؤمن به فوقع ذات مرة فى أسر الحجاج، وكان الحجاج معجبًا به، لأن الحجاج على عكس ما يظن الناس كان رجلاً يشعر أن له رسالة فى الحياة، ورسالته هى الدفاع عن الدول والنظام، وهو يدخل

فى زمرة طراز من أهل السياسة يفرحون بالمخلصين للعرش أو اللوباليستس The Loyal icts وكان يخدم خليفة ممتازًا هو الوليد بن عبد الملك، وكان الحجاج بن يوسف يرى أن طاعة الوليد واجبة لأن الوليد فى طاعة الله وخدمة الإسلام، وليس من حق أى مواطن فى هذه الحالة أن يخرج عليه أو يمنع عنه مال الجباية، ومن فعل ذلك فلابد من عقابه، وكان بنو أمية فى أيامه قد فقدوا ولاء عامة المسلمين بإقدامه على مقتل الحسين رضى الله عنه لأن آل البيت جميعا بيت كل مسلم، والعدوان على أمنهم عدون على كل مسلم، فما بالك بالحسين رضى الله عنه سبط الرسول الأكرم ﷺ، ولكن الحجاج كان رجل الدولة والنظام ولا شأن له بما سوى ذلك، وهو من هذه الناحية رجل له رسالة ومعظم المسلمين لا يقرون الحجاج على هذه الرسالة ويرونه جبارًا عنيدًا بل كافرا، ورأى الناس لم يكن يعنى الحجاج فى شىء مادام هو مؤمنًا بها وفى حدود رسالته هذه يقوم الحجاج بواجب الحماية لكل مسلم يقف مع النظام ومن دلائل اهتمام الحجاج بخدمة الأمة أنه كان من أكثر الناس اهتمامًا بضبط المصحف وله فى ذلك يد بيضاء، وكان يرعى المساجد، ويصل القراء فيها، وهو الذى أنشأ مدينة واسط وصحح عيار العملة. وكل ذلك داخل فى الخط الذى رسمه لنفسه فى الحياة.

ونعود إلى الخارجى فنقول إن الحجاج كان معجبًا به فأدخله على نفسه بعد أن فك قيوده تكريما له وقال:

– أما آن لك أن ترعوى عن غيك وتعود إلى طاعة الله؟

– إنما أنا فى طاعة الله منذ عقلت

– أردنا بك الخير ودعوناك إلى الدخول فى طاعة أمير المؤمنين وترك ما أنت فيه من المعصية.

– وكيف أطيع الله بطاعة الوليد وهو عاص الله ورسوله؟

– ويحك أيها الرجل هذا كلام يحل لى دمك.

– خير لى أن أموت بسيفك وأنا فى طاعة الله من أن أقتل نفسى وأموت كافرًا فى طاعة الآبق الوليد.

– لا خير فيك يأبى الله إلا أن أوردك مورد التلف.

– ليس شيء أحب إلى من أن ألقى الشهادة على يد عدو الله.

وقتله الحجاج، ومثل هذا الرجل يستحق منا الإعجاب حتى لو لم نكن نرى رأيه، فإنه رجل له مبدأ وإيمان، وهو مستعد للموت فى سبيل مبدئه، وهنا ونحن نقرأ أخبار أولئك الناس نشعر أن الحياة تسيرها فئة قليلة جدًا من الرجال ذوى المبادئ والإرادات والعزمات وأنه لا معنى للحياة إذا كان الواحد منا يستعمل ما أعطاه الله من سنوات العمر فى ابتزاز أموال الناس أو سرقتهم أو التسول وتضييع الكرامة، ومرحبا بالحياة إذا كان الإنسان سيعيشها على مبدأ أبى فصادة ولا كانت الحياة إذا كنت ستعيشها على مذهب القبرة.

وإذا نحن تأملنا التاريخ وجدنا أن الذين صنعوه حفنة قليلة جدًا من الناس ذوى الفكر والإرادة والجلد والطموح، وحتى بلد مثل بريطانيا قال المؤرخ ماكونى: إن الذين وضعوا أساس قوتها عشرة من الرجال من طراز أوليفر كروموييل، والمؤرخ الكبير بنديتو كروتشى قال: إن تاريخ أوروبا لا يمكن تصوره بدون ليوناردافيتشى، فقد عرف الناس على يديه قيمة العلم والفن والطموح إلى تحسين صورة الحياة على الأرض، والعلم والعمل الجاد والفن الطموح هى فى رأيه أسباب امتياز الرجل الأوروبى على غيره، ولولا طموح كريستوفر كولومبوس لما كشف الأوروبيون العالم الجديد بمجرد نهضتهم فى إغماء العصور الوسطى، وكروتشى على حق فهانحن أولاء اليوم فى الدنيا نحو مائة وثمانين دولة، ولكن الدول التى يحسب لها حساب لا تزيد على عشر هى التى تملك العلم والمال والقوة

والفن وإرادة الحياة والقدرة على توجيه التاريخ، والباقى أتباع وحواش مهما كان رأيهم فى أنفسهم، ورجال مثل نابليون بونابرت يستحق المكانة التى يحتلها فى التاريخ مهما كان نقد الناس له فإن حروبه أحدثت زلزالاً فى أوروبا فأفاق كل أهلها وتحركوا إلى القوة المسيرة للتاريخ، وإذا كان قد أيقظ الأوربيين باستبداده وسيطرته وحروبه فقد تعلموا عندما قاموا فى وجهه كيف يرفضون الظلم ويقضون على الطغيان!

وعندما نعيد النظر فى حياة نابليون نرى بوضوح أن أهم عنصر من عناصر الحياة الناجحة هى أن تكون عندك إرادة النجاح والعزيمة على أن تقود أنت الحياة لا أن تقودك الحياة.

فعندما اختارته الإدارة (الديركتوار) لكى يقود الحملة الإيطالية فى سنة ١٧٩٥م كان ضابطًا صغيرًا مشاغبًا لا يرجى له مستقبل كبير كان فى السابعة والعشرين من عمره، وكان سجل خدمته حافلاً بالعقوبات، ولكنه كان قارئا عظيمًا لكتب الحرب والاستراتيجية وخصاة كتاب جان انطوان هنرى دى جيبرت وهو كتاب ينبه إلى أهمية المدفعية وكان نابليون ضابطًا فى المدفعية، وقد أحسن استخدامها فى المهام الأولى التى وكلت إليه وعندما رقاه أوجوستان روجسيير قائدًا للمدفعية فى جيش إيطاليا أحس أن فرصته تدنو، وعكف على قراءة الكتب المطولة عن إيطاليا وجغرافيتها وانعقد عزمه على أن يصل إلى القيادة العليا وعندما اختاروه قائدًا لجيش الداخل أدرك أنه يستطيع من مركزه هذا أن يسيطر على فرنسا فسعى حتى كسب ثقة باراس أحد كبار رجال حكومة الإدارة، وسارع بالانتفاع بهذه الفرصة فقام بانقلاب فندمير فى أكتوبر ١٧٩٥م ووصل إلى درجة جنرال.

وكان فى جيوش فرنسا إذا ذاك أكثر من أربعة آلاف ضابط ولكن نابليون فرض نفسه على الحكومة من دونهم ووصل إلى قيادة جيش

إيطاليا وهو لم يعتبر هذا التعيين فضلاً من الحكومة عليه بل اعتبر قبوله لهذه الوظيفة فضلاً منه على فرنسا وثورتها، وهو لم يقبل هذا التعيين ويركن إلى السكون وغشيان المجالس والحفلات فى باريس كما كان غيره من كبار الضباط يفعلون، بل أسرع إلى مركز قيادته فى سافونا، وكانوا قد قالوا له إن جيشه خمسة وأربعون ألف رجل فوجدهم ثلاثين ألفا ثيابهم مهلهلة وطعامهم سيء وخزانة الجيش خاوية..

وغالبية الجنود والضباط متمردون يتغيبون عن المعسكر معظم أيام الأسبوع، وبدلاً من أن يجلس إلى مكتبه يكتب الشكاوى إلى الحكومة المركزية أو يذهب إلى باريس ليتعجل المدد من الحكومة نراه يقبل على عمله بحماسة ويخطب جنوده قائلاً: أيها الجنود أنتم عراة جائعون ورواتبكم متأخرة إذا صدق عزمكم معى فستقع فى أيديكم ولايات غنية ومدن عظيمة وفيها ستجدون المجد والشرف والمال يا جنود إيطاليا هل تعوزكم الشجاعة أو صدق العزيمة؟ كلا.. إنكم أبطال شجعان سيروا معى وسترون أين تصلون!.

ثم أقبل على جيشه يدربه وينظمه ويعيده إلى النظام وأنفق نصف ما أعطوه من أموال فى صناعة مدافع جديدة وضع مواصفاتها بنفسه وصنعها على عينه وبعد أربعة أشهر كان جيشه أكثر جيوش فرنسا نظاما وفى ١٢ أبريل ١٧٩٦م سار بجيوشه فى أراضى إيطاليا وقد وضع بنفسه القواعد الأساسية للنصر وهى مباغته العدو فى كل حين والاعتماد الأساسى على المدفعية ثم إطلاق أيدى الجنود والضباط فى كل مدينة أو قرية يمرون بها وبهذه القواعد استمات جنوده فى القتال تحت رايته وتوالت انتصاراته وبعد أن اكتسح قوات الأعداء وكسب انتصارات مدوية دخل مدينة نيس دخول الظافرين وكانت أيدى جنوده، قد امتلأت بالأموال لأنه لم يحاسبهم على ما يغنمون وإنما كان يكتفى بمطالبتهم بأن يشتروا من مالهم ملابس أنيقة، ودخل جنوده نيس فى أبهى زى

عسكرى وأعظم نظام عرفته أوروبا وصار صيته فى العسكرية الفرنسية فتدافع الضباط والجنود راغبين فى العمل مع نابليون فوضع قواعد غاية فى الصرامة لجيشه، وأطاعها الضباط والجنود لأن هذا الرجل يقودهم فعلا إلى الغنى والمجد والجاه، وكان إلى جانب ذلك من أكرم القادة بالترقيات على العاملين معه من شجعان الضباط والجنود، وخلال هذه الحملة كون نابليون حفنة الضباط الأبطال الذين كسب بهم انتصاراته العظيمة فيما بعد، وعندما عاد من إيطاليا كان بالفعل بفضل إرادته ومهارته وانتصاراته نجم العسكرية الفرنسية الأول وعندما اقترح على حكومة الدير كتوار حرب إنجلترا بقطع طريق تجارتها فى مصر رحبوا بالموافقة ظنا منهم أن هذه فرصة يتخلصون بها من ذلك القائد المحبوب من ضباطه، الخطر على الحكومة وقبل أن يغادر باريس إلى طولون. على رأس جيش مصر فى يونيو ١٧٨٩م كان قد وضع كبار ضباطه فى مراكز القوة والإدارة فى باريس، وهؤلاء كانوا يكتبون له تقارير يومية عما يجرى فى باريس لكى يعرف متى يعود، وتنظيمه للحملة الفرنسية على النحو الذى نعرفه يدل حقًا على أن نابليون لم يكن مجرد ضابط ممتاز بل أمامنا هنا مفكر واسع الذهن بعيد النظر يعرف أن العلم أساس كل نجاح فى الحياة، هنا نفهم كيف فرض نابليون نفسه على التاريخ ووصل إلى ما وصل إليه. إنه لا ينتمى إلى جنس القبرات بل إلى جنس أبى فصادة.

وبعد هذا المثال الواضح التفاصيل من التاريخ الحديث التفت إلى مثال من تاريخنا من أمثلة الرجال الذين يصنعون التاريخ لأن لديهم عزيمة النجاح والقدرة على فرض أنفسهم على الحوادث. هذا المثال هو خالد بن الوليد بن المغيرة بطل الإسلام المشهور، ولقد قرأنا عشرات الكتب عن خالد دون أن نفهم من أحد منها سر امتيازه، وكيف وصل إلى المركز الذى جعله أعظم قائد عسكرى عرفناه فى تاريخنا، لقد قرأت

من شهور كتابًا ضخمًا عن خالد والمؤلف لا يذكر اسمه إلا أشفعه بلقب سيف الله وسيف رسوله، كأن خالدًا أصبح بطل الإسلام لأن الرسول صلوات الله عليه أعطاه هذا اللقب، ولم يسأل العلامة الجهبذ نفسه: كيف استحق خالد من رسول الله هذا التشريف الكبير؟

كان خالد بطبعه رجل إرادة وعزم لابد من ذلك وإلا ما وصل خالد إلى شيء، فإن الحوادث تصنع الرجال العاديين ولكن الأفذاذ يصنعون الحوادث ويقودون التاريخ. فإن خالدا عندما استقر رأيه على دخول الإسلام كان قد آمن إيمانا صادقا برسوله، لأنه نظر إليه بعين القائد فرأى من آلاء صدق الرسول وحسن قيادته لرجاله ما زاده إيمانا بالإسلام فدخله على عزيمة صادقة وإحساس بأن الإسلام هو المال الحقيقى الذى تتجلى فيه ملكاته، وكان رسول الله ﷺ فيصلاً فى معرفة أقدار الرجال، يرى الرجل أول ما يراه ويسمعه يتحدث فيعرف قدره، وقد سر بإسلام خالد ورحب به وعندما ندبه للاشتراك فى سرية مؤته كان يشعر أن هذا الجيش الذاهب لقتال الروم لابد سيحتاج إلى موهبة عسكرية من طراز خالد، وصدقت فطانة الرسول، واستطاع خالد بعد مقتل الأمراء الثلاثة: زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبى طالب أن يحول بين جيشه والتفرق، فضمهم إلى نفسه وخادع الروم، وتمكن من العودة بالجيش سالمًا لم ينقص إلا اليسير.

وعندما تولى خالد مهمته الأولى فى حروب الردة نجد أنفسنا أمام رجل ذى عزيمة وحزم وفلسفة خاصة فى قيادة الجيش، فهو فارس له قلب أسد، وقد قامت فلسفة خالد العسكرية على إيمانه الإسلامى العميق وتأثره العميق بشخصية الرسول ﷺ، وكانت القاعدة العسكرية الأولى التى سار عليها هى حسن ترتيب الجيش ثم الإسراع بمباغتة العدو بكل ما لديه من قوة، فلا يترك له فرصة للتفكير، فلا يتراءى الجيشان إلا دفع خالد كالسيل فزلزل العدو، والقاعدة الثانية هى إكرام

جنده وإعطاؤهم كل ما يعطيهم إياه الإسلام، وهو كثير فكان جنده يسيرون معه وهم واثقون من شيئين: من النصر فإن خالدًا رجل النصر ثم من الجزاء الأوفى فلا شيء يعجب الجندى أكثر من يقينه بأن قائده سخى اليد لا يؤثر نفسه بشيء وإنما يعرف حقوق المقاتلين.

والمثال الأكبر لذلك كله هو أن أبا بكر عندما استقر رأيه على أن يعهد لخالد فى قيادة جيوش المسلمين فى حرب فارس، مشتركًا فى ذلك مع عياض بن غَنْم كانت تعليمات أبى بكر تقتضى بأن يتجه خالد إلى العراق عن طريق الحيرة ويسير عياض عن طريق دومة الجندل، فأما خالد فقد مضى بمن معه كالسهم المارق لا يواجه العدو فى موقف إلا باغته ومزق جيشه قبل أن يفيق من ذهوله، وكان القادة فى ذاك العصر يتمهلون فى المسير والهجوم فما راع قادة الفرس إلا فارس على رأس فرسان الأسود لا يرون العدو حتى ينقضوا عليه على تعبئة تامة وخطة محكمة فلم ينقض لخالد عام فى الحرب إلا وقد دخل الحيرة واستقر الرعب فى قلب أعدائه، ومع خالد جنوده مستعدون لخوض النار معه مؤمنين بالنصر واثقين من حسن الجزاء، وبعد أن فتح خالد الحيرة وبدد قوات الأعداء يصله أمر من أبى بكر يطلب إليه أن يخفف لعون عياض بن غنم الذى عجز عن فتح دومة الجندل فأرسل خالد لعياض رسالة هى برقية ودليل عبقرية من خالد بن الوليد إلى عياض بن غنم بلغنى أمرك وأنا سائر إليك والسلام وما وصل خالد حتى بدد الأعداء وأطلق جيش عياض بن غَنْم وضمه إلى جيشه وقد تعلم عياض من خالد من دروس العسكرية ما جعله فيما بعد من أعظم قواد الإسلام.

□□□

لتكن فلسفتك فى الحياة فلسفة خالد ونابليون.. فلسفة رجل ذى إيمان وعلم وعزيمة على صنع نفسه أولاً.. ثم صنع التاريخ بعد ذلك، فلسفة رجل لا يدع غيره يصنع له حياته بل هو الذى يصنع حيوات

الناس، وأن أكبر سبب فى هبوط مستوى الشباب عندنا أننا نقضى على شخصياتهم ونتدخل فى حياتهم بنظام تعليمى أشبه بقواعد تربية الكتاكيت فى مزارع الدجاج، ففى مزارع الكتاكيت يتصرف فى مستقبلها عامل يقتل بإهماله وجهله سبعين فى المائة منها ولا ينجو منها إلا ثلاثون، وفى نظامنا التعليمى هناك التدريس السقيم وسوء إدارة المدارس والكتب التافهة والمدرسون المرهقون والأسئلة الواهية والتصحيح البالغ الرأفة، ثم مكتب التنسيق. والشباب لا يصنع نفسه بل يصنعه نظام هذا المكتب والطالب يمضى سنوات الدراسة وكأنه رغيف على خط الإنتاج فى مخبز آلى: ونادرا ما يخرج رغيف على هيئة رغيف يفتح النفس.

أريد منك أن تتمسك بأن تكون حياتك من صنع نفسك لا من صنع من حولك لأن الله خلقك ووهبك العزيمة وأهلّك لأن تكون ممن يصلحون الأرض والناس، أريد منك أن تكون على الأقل أبا فصادة، ومهما يبلغ الأمر فلا تكن قط قبرة لا تزال طول عمرها القصير تنبش التراب باحثة عن رزق ضئيل لأن الذى يجرى وراء الملاليم لا يصل أبدًا إلى الملايين.

(١٤)

حسابات التكيَّة*

كان لنا فيما مضى صديق كريم من أهل الأدب هو الدكتور محمد عبده عزام ، ندبوه بعد تخرجه موظفًا فى التكية المصرية في جدة ، فكتب عن تجربته فى عالم النوم والأكل والكسل كتابًا طريفًا حافلاً بالفكاهة يسمى «شيخ التكية». وقد أمتعنى كتابه هذا ، وشوقنى إلى زيارة تلك التكية ، فلما حججت أول مرة سنة ١٩٣٨م لبثت بعد الحج أسابيع أزور معالم مكة وجدة وأتطلب أخبار هذه التكية ، وزرت آخر شيوخها فى بيته ، وكان زكيبة أو شوالاً شركسيًا ذا جثة هائلة وشوارب عظيمة ، ولكنه كان أنيسا لطيفًا صاحب دعابة ، وقد أطرفنى الرجل بأحاديث ممتعة عن تاريخ هذه التكية وأسلوب الحياة فيها..

وقد حكى لى أنه أتاه ذات مرة من مصر مفتش مالى أرسلته وزارة الأوقاف المصرية ليراجع حسابات التكية ، وكان هذا شيئًا جديدًا فلم يسبق أن أرسلت الحكومة المصرية مفتشًا من هذا النوع ، فلما دخل المفتش وجد هذا الشيخ مسترخيًا على أريكته فى الحديقة متكئًا على الوسائد وكان عمله ينحصر فى متناول الوجبات الفخمة الرسمية والاتكاء على الأرائك طول النهار..

ولم يسمع الشيخ تحية المفتش عندما دخل لأن رأسه الضخم وعمامته الفخمة كانا مائلين على صدره ، وقد استقرت العمامة الفخيمة على كرشه فى نعاس لطيف ، وقد استاء المفتش لقلة الاحتفال به فجلس على كرسى قريبًا من الأريكة وطلب إلى خادم أن يوقظ الشيخ فقال الخادم :

---

* نشرت هذه المقالة فى ٩ يونيو ١٩٨٥م .

– لا يجرؤ أحد على إقلاق راحة الشيخ أثناء تأدية عمله.

– يا أخى إنه لا يعمل شيئًا إنه نعسان.

قال الخادم: هذا يا سيدى هو جانب من عمله الرسمى لا تنسى يا سيدى أننا فى تكية.

– وما بقية عمله ؟

– تناول الوجبات فى أوقاتها وأداء الصلوات عند دخولها..

وعلى هذا الحديث أفاق الشيخ ، فرفع عمامته الهائلة ومعها رأسه ، وطلب من الخادم ماء ، فناوله قلة ، صب فى حلقه نصفها ثم تلمظ وتمزمز ومسح شاربه ولحيته ، ونظر إلى المفتش نصف نائم وقال:

– من هذا يا ولد يا فراش جلبى ازميرلى ؟

فقال له الخادم: هذا مفتش حسابات وفد ليلة أمس قادمًا من القاهرة فأطال الشيخ النظر إلى المفتش ، ثم أشار إلى الفراش فأقبل ورفع عمامة الشيخ ليهتوى رأسه وليهرشه بعض الشىء ، ثم وضع الفراش العمامة مقلوبة على الأريكة إلى جوار الشيخ. وقال الشيخ..

– مفتش حسابات ؟ وماذا يريد منا ؟

– فقال المفتش : معذرة يا شيخ مصطفى زاده مغلطاى أفندى : أنا واحد من وزارة الأوقاف فى القاهرة لكى أراجع حسابات التكية..

– وما لوزارة الأوقاف وما لنا ؟ وهل لنا نحن حسابات تراجع ؟

– يا شيخ مصطفى زاده مغلطاى أفندى إنكم تتسلمون اعتمادات مالية كل عام.. وهذه الأموال لابد أن لها حسابات ، وأريد إذا سمحت أن آخذ فكرة عما تعملون هنا إلى جانب الانجعاص على الآرائك..

فطلب الشيخ القلة وأفرغ فى جوفه نصفها الباقى ، وناولها للفراش والفراش أخذها وأخرج منديلاً محلاويًا مسح به شارب الشيخ ولحيته وقال الشيخ :

– يا حضرة مندوب وزارة الأوقاف أفندى هذه تكية والتكية هى المكان الذى يجلس الناس فيه مكتئبين على الآرائك ، ومن هنا جاء اسمها ، وأنا عندما أجلس على أريكتى على الوسائد إنما أقوم بمهام وظيفتى بالتمام والكمال ، ففى المصنع أنت تصنع ، وفى المزرعة أنت تزرع ، وفى التكية أنت تتكئ..

– مفهوم يا أخى الشيخ مصطفى زاده مغلطاى أفندى ، ولكنى أحب أن تكلف خاطرك وتحرك جثتك الشريفة وتأتى معى إلى مكتبك لكى تراجع الحسابات..

– مكتب وحسابات يا سيدى ما اسم حضرتك ؟.

– محسوبك عبد المعبود عبد الدايم الديروطى وكيل حسابات بوزارة الأوقاف..

– اسمع يا حضرة عبد المعبود عبد الدايم الدشطوطى أفندى.

– الديروطى ياشيخ مصطفى زاده مغلطاى أفندى.

– يا أخى اسمك معقد.. سأسميك على أفندى ، فهذا اسم خفيف لطيف ومبارك أيضًا فهو اسم مولانا الإمام الأكبر كرم الله وجهه. يا على أفندى لا يمكن أن تكون للتكية حسابات أو دفاتر ، فنحن هنا نعيش بالبركة ، نتسلم الاعتمادات ونضعها فى الخزانة وننفق منها شيئا فشيئا بلا دفاتر أو أوراق..

– هذه التكية تابعة لوزارة أوقافنا ، وهى التى تقدم لها الأموال ، فكيف لا يقدم لها حساب مضبوط عن كل مليم يصرف منها ، نحن

يا سيد شيخ مصطفى زاده مغلطاى أفندى حكومة ، حكومة ذات إدارة وحسابات وضبط وربط.

فحك الشيخ مصطفى مغلطاى زاده أفندى رأسه الأصلع صلعًا تامًا وقال:

– يا جناب على أفندى مفتش حسابات: أنتم حكومة ونحن تكية ، وعندى هنا ستون تنبلاً مستوفون لكل شروط التنبلة ، وكل منهم دخل التكية بتوصية خاقانية من استانبول أو ملوكية من مصر ، والعمل المطلوب منهم هو القيام بالعبادات بكل قواعدها وشروطها والنوم متى شاءوا والأكل حتى يشبعوا ثلاث مرات فى اليوم ولهم بحكم قانون التكية أن يأكلوا عثمانلى أو مصرلى..

– ربما ، ولكن هذا أيضًا يمكن أن يعمل له حساب.

– يا مفتش أفندى كيف تطالبنى بأن أعمل للتنبلة حسابات ؟

– أنا أفهم أنك لا تستطيع عمل حساب التنبلة فأنتم لا تشترونها بل تصنعونها محليًا ، ولكنك تستطيع أن تعمل حسابات الأكل..

– هذا غير ممكن يا مفتش أفندى لأن قانون التكية يقول إن من حق كل تنبل أن يأكل ما يشاء عثمانلى أو مصرلى بلا حساب ، خذ عندك تنبل مراد سنجق أغا باشا النائم على الأريكة أمامك تحت الشجرة هذا أصله من وراء مولانا حارس الحرمين وخاقان البرين وسلطان البرين مولانا غازى أمير المؤمنين عبد المجيد خان ، وغضب عليه مولانا وحكم عليه بالموت بالخازوق ، ثم تشفعت فيه والدة باشا ، وأرسلته إلى هذه التكية الشريفة ليقضى بقية عمره فيها ، وقالت إنه لا يجوز قتله بعد أن خدم الدولة وأنجب لها عشرين ولدًا ، عشرة منهم رجال وعشر نساء ، وتسليته الوحيدة هنا هى الطعام ، لقد تغدى اليوم بنصف قوزى مشوى ومحشو باللوز والزبيب والأرز ، ولو أراد أن يأكل

القوزى كله لتركناه له احترامًا لتنبلته ، أولاً ، ثم لأنه تنبل وزير سابق سلطانى ثانيًا ، ووظيفته الأساسية بعد الصلاة هى الأكل ، وهو يقوم بهذه الوظيفة على خير ما يرام، والدليل على ذلك أنه بعد أن أكل نصف القوزى بكل جد واجتهاد ختم غداءه بأربعة طواجن أرز باللبن فى الفرن ، ولو طلب خمسة أو عشرة فلابد أن نقدمها له وإلا اتهمونا بأننا نحول بين موظف مجتهد وآداء مهام وظيفته ، فكيف أعمل حسابا لطعام ستين تنبلا مثل مراد أغا سنجق باشا؟..

– إذن فلا سبيل إلى عمل حسابات لتكيتكم هذه ؟

– وبعدين معك يا مفتش أفندى ؟ أقول لك هذا ثور ، فتقول لى أحلبه . نحن هنا تكية والتكية تأخذ بغير حساب وتعطى بغير حساب ، والتنابلة يأخذون ولا يعطون ، وأنا يا سيدى لا أستطيع تغيير هذا النظام ، وإلا قام علىَّ التنابلة واتهمونى بالتآمر على النظام القائم..

– ليس أمامى إلا أن أرفع فيك تقريرًا إلى الوزارة وأطلب إحالتك إلى التحقيق

– لا تستطيع يا مفتش أفندى.

– ولماذا لا أستطيع ؟ ألست موظفًا فى الحكومة ؟

– بلى أنا موظف ، ولكنى غير قابل للعزل.

– سبحان الله! وهل على رأسك ريشة.

– تحشم يا ولد مفتش أنا رأسى ليس عليها ريشة ولا شيشة ، ولا حتى شعره ، إننى أتولى وظيفتى هذه تنفيذا لوصية مؤسس التكية مولانا خادم الحرمين وسلطان البحرين وحامى البرين غازى خاقان أمير المؤمنين سليم أول يا ووظ فاتح مصر والشام ومنشئ هذه التكية وواقف أوقافها..

– تريد أن تقول إنك معين من قبل السلطان سليم.

– تحشم يا ولد مفتش غبى وأذكر السلطان بكل ألقابه. يا حمار مفتش أنا حفيد حفيد حفيد صدر أعظم كوكبرى مغلطاى خادم مولانا الخاقان أمير المؤمنين غازى سليم أول ياووظ ، وابنه سلطان خاقان سليمان قانونى. أعطى جدى لقب سنجق تكية جده وأوقف هذه الوظيفة على جدى وأولاده وأحفاده ، فأوقاف هذه التكية ملكى بفرمان خاقانى..

– يا شيخ زاده مغلطاى لقد مضت أيام مولاك خاقان غازى سليم ياووظ وابنه سليمان قانونى..

– غلطان يا ولد مفتش لأن سلطان وخليفة عثمانلى تنازل عن التكية لجلالة مولانا ملك مصر فؤاد أول حفظه الله ، ولكى تعزلنى فلابد أن تعزل جلالته أولاً.. وإذا أردت عزل جلالته طار رأسك ، هذا نظام وقانون يا ولد مفتش حمار ، ونحن سنتركك تنام ، وتأكل فى التكية احتراما لمولانا جلالة الملك الآن امش من أمامى ، فقد حان موعد صلاة العصر ولابد أن أتوضأ.. يا ولد فراش هات الطشت والصناوور..

وحمد المفتش الله على أنهم لم يطردوه من التكية ، وقال فى نفسه: ملعون أبو الحسابات والميزانية سأظل فى هذه التكية وأتمتع بالقوازى والدواجن والطواجن والمهلبيات والحلويات حتى يجىء موسم الحج فأقوم بالفريضة ثم أعود إلى مصر..

ودخل غرفته وصلى العصر ثم جلس ينظر فى أوراق وجدها على ترابيزة، ومن بينها وجد شهادة وفاة تنبل يسمى بايزيد أفندى أرندلى أغا توفى من شهرين فأسرع بها إلى شيخ التكية فأيقظه فى رفق وقال..

– يا شيخ شيوخ التكايا وصاحب الكرم والعطايا مولاى مصطفى زادة مغلطاى باشا هل عينتم تنبلاً مكان المرحوم بازيد أفندى أرندلى أغا ألف رحمة من الله..

– ليس بعد ولكن إذا أردت نظرت فى تعيينك تنبلاً تحت التمرين لأنك يا مفتش عبد المعبود البطوطى..

– الديروطى يا أفندم.

– ديروطى بطوطى دشطوطى ، كله زفت ، وأنت تنفع كاتب خصوصى لجنابنا لتعمل حسابات أملاكنا الخاصة ، فالمصريون مشهورون بأنهم كتبة شطار ، وتحول المفتش إلى خادم تنبل ، ودل بذلك على أنه رجل ذكى ، والتكية المصرية فى جدة أنشئت سنة ٩٢٤ هجرى ، أما التكية المصرية فى مصر فقد أنشئت فى ذى القعدة ١٣٧٢ هجرى ، وذو القعدة ١٣٧٢ هجرى يقابل يوليو ١٩٥٢م ميلادى المبارك..

وثورة ذى القعدة ١٣٧٢ هجرى وضعت القوانين الإصلاحية الأساسية للتكية المصرية ، وأزالت بالشرعية الثورية كل علاقة بين العمل والأجر ، والحق والواجب ، وكانت هى الخطوة الأولى لتحويل مصر إلى تكية دولية. وثورة ذى القعدة صاحبة الفضل فى قانون الإصلاح الزراعى الذى ليس بقانون ولا إصلاح زراعى ، لأن الذين صاغوا هذا القانون كانوا على شىء من العلم ، وفى المذكرات التى كتبوها والدراسات التى خلفوها لنا تحس أنهم كانوا على فهم لا بأس به بمعنى الإصلاح الزراعى ، ولكن المصيبة جاءت من الذين طبقوه، وكانوا جميعا أبعد ما يكونون عن العلم بالزراعة أو الصناعة أو أى شأن من شئون الإدارة السليمة، وكانت تسيرهم خصائص كثيرة، الأولى هى الغرور، وإدعاء أنهم يعرفون كل شىء وأنهم هم وحدهم الوطنيون المخلصون الواعون والباقى غنم. والنزعة أو الخاصية الثانية جهل شامل عميق، وإذا أنت درست أحوال مؤسسى التكية لتبينت أن اثنين منهم فقط قرآ كتابًا وعرفا لغات. أما البقية فمستوى نجاحهم فى الثانوية العامة لا يتعدى درجة جيد، أما الدراسة العليا فلم تزد بالنسبة لغالبيتهم على سنتين،

وبعضهم تخرج بعد أقل من سنة، وبهذه الحصيلة من العلم فرضوا أنفسهم على البلد، وزعموا لأنفسهم أنهم قادرون على حل مشاكلها جميعا. والنهوض بها، وألغوا وجود أهل العلم والفهم والتخصص واحتقروهم، ومن هنا فقد زادوا الأحوال سوءا، وأضافوا إلى أدوائنا القديمة أدواء جديدة. والخاصية الثالثة حقد شديد على كل متعلم أو صاحب مال، بل على البيوت الطيبة الكريمة وأبنائها، وأذكر أننا كنا ذات يوم فى الأردن فى زيارة ودية، ودعونا إلى وليمة عربية أردنية تسمى المنسف يضعون فيها الطعام – وهو ثريد بأرز كثير ولحم كثير فى آنية كبيرة كالطشوت على الأرض ويقعدون على الأرض ويأكلون بالأيدى وأصحابنا فى الأردن مهرة فى الأكل بهذه الطريقة. وجلسنا ودار الأكل، وتحيرت فى أمرى كيف آخذ الثريد بيدى وأرفعه إلى فمى دون أن «أزروط» ثيابى، فقررت أن أتظاهر بالأكل ولا آكل حفاظًا على ثيابى، ومن بعيد أسمع السيد كمال الدين حسين يقول: مش عاوز شغل أولاد الذوات، ده يا سى حسين! وبعد الطعام قلت له: أى ذوات تعنيهم يا سيدى الوزير؟ إن والدى خرج على المعاش بثلاثة وعشرين جنيها بعد خدمة خمس وثلاثين سنة صيدليا فى الحكومة، وعندما فرغت من الدراسة الثانوية وأردت دخول الجامعة قلت لأبى: لا عليك من نفقة تعليمى فسأقوم أنا بها، وكفاك ما فعلت من أجلى. وعملت ودرست وأتممت تعليمى فأين أنا يا سيدى من الذوات؟ والخاصية الرابعة هى النهم إلى السلطان والاستبداد بالأمر كله ، وإلغاء وجود الشعب مع النفاق الأسود والتمدح بالشعب والديموقراطية فى الخطب من على المنابر.

ومن هنا فسد كل شىء فى أيديهم ، حتى السد العالى ، وهو مفخرتهم الكبرى – ضيعوا جانبًا كبيرًا من الفائدة منه باضطهادهم لكل مواطن ذى علم جرؤ على أن يدلى برأى أو يوجه انتقادًا للمشروع

الروسى ، ولا غرابة إذن فى أن الروس قالوا لنا إن السد سيعطينا قدرًا هائلاً من الكهرباء يغطى كل احتياجات مصر ووجدنا فى النهاية أن الذى طلعنا به منه لا يزيد على خمس ما قالوا ، ونحن من عشرين سنة نحاول إصلاح عيوب السد.

والإصلاح الزراعى معناه إصلاح الريف كله أى الارتفاع بالمستوى الاجتماعى والثقافى والعلمى للفلاحين ، والقضاء على القرية الفقيرة الكابية ، وإنشاء قرى جميلة حديثة مكانها ، وإصلاح نظام الرى وأساليب علاج الأرض علاجًا علميًا واقتصاديًا ، وإدخال الزراعة العلمية الاقتصادية ، وإصلاح الطرق والمواصلات فى الريف بعبارة واحدة. تحويل الريف إلى مجتمع تقدمى منتج اقتصاديًا ، فما الذى فهمه أصحابنا من الإصلاح الزراعى؟ فهموه على أنه انتزاع الأراضى من أصحابها القدامى على اعتبار أنهم كلهم لصوص ، ولم يخطر ببالهم أنه من الممكن أن يوجد مالك أرض أمين شريف. فكل الأغنياء والمياسير فى نظرهم لصوص. أخذوا الأرض من أصحابها واتهموهم جميعا بأنهم إقطاعيون ظالمون ولصوص غاشمون يضربون الفلاحين بالكرباج وينهبون أموالهم ويرغمونهم على بيع مواشيهم لسداد الإيجارات الباهظة ، وهذا كله غير صحيح ، ثم فتتوا الأرض قطعًا صغيرة ووزعوها على الفلاحين ، فتلاشت إلى يومنا هذا الزراعة الاقتصادية من مصر ، لأن المكسب من الزراعة لا يأتى إلا من المزارع الكبيرة التى يستطيع أصحابها تولى القطن والكتان والبصل والفاكهة والخضر والإنفاق عليها ، والفلاح الصغير لا يستطيع تربية الماشية التى تدر اللبن الوفير الذى تقوم عليه صناعات الزبد والجبن والألبان التى يمكن أن تكون مصدر ثروة للبلد.

وأحسن البلاد تطبيقًا للإصلاح الزراعى هى البلاد الرأسمالية ، وروسيا نفسها التى وقعت فى مصيبة مصادرة الأراضى تحولت من بلد غنى زراعيًا ومصدر للطعام فى عصر القياصرة تحولت بعد الثورة

الشيوعية إلى بلد يستورد الطعام ، ولازالت الزراعة وإنتاج الطعام نقطة الضعف الكبرى فى النظام الروسى. أما الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وهولندا وبلجيكا والدانمرك وإيطاليا – وكلها بلاد رأسمالية – فهى بلاد الإنتاج الغذائى الوفير الاقتصادى. إنها بلاد الإصلاح الزراعى على أصوله.

وعندما انتقلت الحكومة فى أسبانيا من الرأسمالية المطلقة التى كانت سائدة أيام الخنراليسيمو فرانكو إلى الاشتراكية فى أيام فيليبى جونتالت ماركس «رئيس وزراء أسبانيا اليوم» نادى النواب الاشتراكيون بمصادرة أراضى كبار الملاك الزراعيين ، وتوزيعها على صغار الفلاحين فتافيت ، ولكن فيليبى جونتالت – بعد التفاهم مع الاشتراكية الدولية ، وخاصة رئيسها فيلى برانت – رفض ذلك وقال: ندع الأراضى فى أيدى أصحابها، ونكلفهم بتنفيذ الإصلاح الزراعى والنهوض بالقرى والفلاحين لأن المالك الغنى هو القادر على القيام بمطالب الزراعة الاقتصادية ومحاصيل الاستهلاك والتصدير.

واذهب الآن إلى الريف الأسبانى وتأمل ازدهار القرى ورضاءها وتحولها إلى مدن صغيرة ، بل منتجعات سياحية: تبهر العين بحسن روائها ، وأسبانيا اليوم ثانية البلاد الأوروبية فى الإنتاج الزراعى بعد فرنسا ، وخاصة الموالح والزيتون وزيت الزيتون والخضر والفواكه ، وأسبانيا ثانية بلاد أوروبا إنتاجًا للقمح بعد الأوكرايين فى روسيا. وأمريكا تطعم نصف الدنيا ، وسويسرا وبلاد الشمال الأوروبى وفرنسا تنتج من صناعات الألبان ما يزيد على حاجة الدنيا ، وفى السوق الأوربية يتحدثون عن مشكلة جبل الزبد الذى لا يدرون كيف يتصرفون فيه.

أما عندنا فقد أخذ الفلاح الصغير الفدادين الخمسة التى أعطوه إياها وزرعها وأكل كل محصولها وتزوج امرأة أخرى وضاعف إنتاجه من

الأولاد وعندما مات توزعت الأرض إلى فتافيت فى أيدى أولاده ، ولم يعد واحد منهم بقادر على إطعام نفسه من أرضه ، واشتكى الفقر والحاجة وتحسر على أيام الإقطاع وتقدمت الحكومة لتعينه فاتكل على الطعام المدعوم وأهمل الزراعة ، بل تاجر فى الأرض وتحول إلى سمسار عقارات ، وجلس فى المقهى يشرب الشيشة ويتفرج على الماتش ، وأدخل التليفزيون بل الفيديو فى بيته بكلمة واحدة تحول إلى تنبل. والتكية المصرية اتسعت حتى شملت مصر كلها ومن مآسى حياتنا اليوم أننا نستورد طعامًا بألفى مليون دولارًا ، ونستورد سبعين فى المائة من طعامنا ولا ننتج إلا ثلاثين فى المائة. كلنا أصبحنا نتكلم لغة تنبل باشا مصطفى زاده مغلطاى.

وفى ذات مرة ركبت قطارًا من فرانكفورت فى ألمانيا إلى أمستردام فى هولندا. وفى عربة القطار أجد وفدًا مصريًا فخمًا من تسعة من كباتن التموين والتخطيط والزراعة والتجارة أتوا من مصر وفدًا للتفاوض على قروض ومنح طعام من أوروبا ، وأجدهم يا مولاى متأنقين متصيفين: فى أيديهم ساعات الذهب وأقلام حبر الذهب فى صدورهم ، وفهمت بداهة أن حقائبهم حافلة بالهدايا والمصاغ لمقاصيف الرقبة أولادهم ونسوانهم. ولم أسائل نفسى من أين أتى وفد التسول هذا بكل هذا المصاغ والهدايا ، فإن القانون المالى يقول إن الموظف المسافر فى مهمة إذا نزل ضيفا على البلد الذاهب إليه فليس له إلا نصف بدل السفر ، ولكن أصحابنا كذبوا على الدول وأخذوا بدل السفر كله ، واختلسوا إلى جانب ذلك كم ألفا من الدولارات ، زعموا أنها بدل تمثيل للوفد لعله يقيم حفلات أو استقبالات، وضربوا الفلوس فى جيوبهم ، ولم يقيموا حفلة أو وليمة ، وهذا طبيعى ، لأنهم بطبيعة مهمتهم متسولون ، تنابلة متسولون ، وهل رأيت فى حياتك متسولاً يقيم وليمة ؟

واسمع الألمانى دليل الوفد يسأل رئيسه الدكتور تنبل أغا طامرطاش:

– ولكن يا سيدى كلنا عرف أن مصر بلد زراعى ، فلماذا لا يوجد عندكم زبد؟ أليس عندكم بقر؟

ويقول السيد الدكتور تنبل أغا فرطاش: طبعًا ما سيدى عندنا بقر. ولكنه لا يكفى.. والجواب الصحيح.

– طبعًا يا سيدى عندنا بقر كثير ، ولكنه يقر ذكر لا ينتج اللبن. إنه بقر يحمل الدكتوراه ويجلس على المكاتب ويكتب التقارير ، وكل تقرير منها يخرب بلدًا.

إنه بقر تربية إصلاحنا الزراعى المبارك.

□□□

ومن أعجب القواعد التى تقوم عليها التكية المصرية هى إلغاء العلاقة بين العمل والأجر . ونحن فيما أحسب البلد الوحيد فى الدنيا الذى وضع لنفسه قواعد شاذة غير منطقية فى الحياة والعمل. فالمصرى هو المواطن الوحيد فى الدنيا الذى له حقوق وليس عليه واجبات. وكليات القانون فى جامعاتنا تسمى كليات الحقوق لأن المفروض أن المصرى له حقوق وليس عليه واجبات. والذين أنشئوا التكية المصرية أفهموا الناس أن إدارة التكية ستعطيهم وتكسوهم وتلبسهم وتعلمهم وتزوجهم كمان. وأن واجبهم الوحيد هو النوم ، وعدم التفكير فى شئون بلادهم وإلا كانوا مثأخرين على النظام وأعداء الثورة.

الأرياف – كما قلنا أخذوا الأرض من أصحابها ووزعوها على الفلاحين، ولم يطالبوهم بإنتاج ، فكان الخراب الزراعى. وفى المدن أنزلوا إيجارات المساكن العقار مرة بعد أخرى ووضعوا قوانين تجعل المؤجر هو صاحب العقار ، أما صاحب العقار فالمفروض – دون بحث أو مناقشة – أنه لص ابن كلب. فالمؤجر يورث العقار لأفراد أسرته إلى

الدرجة الرابعة ، وورثته يورثونها لأفراد أسرهم إلى الدرجة الرابعة ، وهكذا حتى يتحول العقار إلى تراب أو خرابة ، ومع ذلك فإن القانون يلزم صاحب البيت بصيانته ، والعناية به ، بل على المالك أن يصون المصعد ، والساكن يدفع ملاليم وأفراد أسرته عشرة منهم خمسة أولاد على الأقل كالعفاريت ، وهم طول النهار طالعون بالمصعد ونازلون بالمصعد ، وست هانم وزنها طن ، وهى ترسل الشغالة إلى السوق لشراء ليمونة أو ورقة ملح والشغالة تنزل بالمصعد وتطلع بالمصعد ، وإذا تعطل المصعد فإصلاحه على المالك الذى يمنعه بعض السكان من الصعود على رجليه ، ومن هنا فإن العامل الذى أصبح يكسب ثلاثين جنيها فصاعدًا فى اليوم يسكن شقة إيجارها ثلاثة جنيهات ، ويشترى البطيخة بخمسة جنيهات ، ويعمر مزاجه بعشرين جنيها فى اليوم وإذا اتفقت معه على عمل يحتاج إلى يومين ويكلف جنيهين أخذ منك مائتين ، ولم ينجز العمل بعد شهرين ، إنه ليس تنبل باشا فقط بل هو السلطان تنبل، ثم يشكون من أزمة المساكن ويحتجون على أصحاب الأملاك الذين يطالبون بثلاثة أرباع تكاليف البناء خلو رجل، وأين والله المجنون الذى يبنى بيتًا تتكلف الشقة فيه ثلاثين ألف جنيه ثم يؤجرها دون خلو رجل لساكن يدفع خمسة وعشرين جنيها فى الشهر ولا يكاد يستقر فيها حتى يرفع قضية على المالك ويطالب بتخفيض الإيجار إلى النصف أو الثلث والمحكمة تعطيه الحق ، وهو إذا دخل الشقة فلن يخرج منها هو وأولاده وأحفاده من بعده إلى أن يتحول البيت إلى تراب أو تقوم الساعة أيهما أسبق !!

لا علاقة بين الحق والواجب أو العمل والأجر فالمصنع يخسر ، ولكن العامل يتقاضى الأجر والحوافز والمنح والزيادات وصاحب العقار يبنى ويكلف ويسلم المبنى لمؤجر يصبح من لحظة دخوله المسكن صاحب ملك ، والفلاح لا يزرع ولا ينتج حتى طعامه ، والحكومة ترسل له

الخبز والبيض واللحم والدواجن لكى تتأكد من أنه تحول إلى تنبل أصيل.

تلك يا سيدى هى قواعد التكية المصرية ، وهى كما ترى أعجب من منطق صاحبنا تنبل باشا مصطفى زاده مغلطاى ، وصاحبه سنجق أغا طامر طاش ، وصاحبنا عبد المعبود عبد الدايم الديروطى المفتش المالى الذى تحول إلى تنبل مساعد أغا ديروطلى أفندى.

obeikandl.com